رسالة من كورنوجيا

روايةٌ

عنوان الكتاب : رسالة من كورنوجيا
المؤلف : ناهض الهندي
التصنيف : رواية
الطبعة : الأولى
سنة الطبع : ٢٠٢٣
ISBN : 978-9922-8685-9-2
مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف : فلاح العيساوي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٠٠٠٠) **لسنة ٢٠٢٣م**

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤
بريد إلكتروني: **alrtyu44@gmail.com**
رياض داخل: **Facebook**

ناهض الهندي

رسالة من كورنوجيا

رواية

٢٠٢٣

(ليس مستحيلاً أن تقضـي في السـجن، عشراً من السنين، خمس عشرة وأكثر، ذلك ممكن شريطة ألَّـا تسـوّد الجـوهرة النائمـة تحت ثديك الأيسر).

ناظم حكمت

إهداء

إلى جلادي الذي كشف لي
معنى الحرية والحياة.

1

سارت بنا من جديد العربة عينها التي أقلتنا من المعتقل إلى ضفة أخرى، سيسفح فيها العمر دمه على رصيف الانتظار. وأنا أغادر المبنى وسعت حدقتاي إلى حدٍ ابتلعت فيه كامل الأفق البعيد حيث تسكن المدينة التي تبني أرصفتها على جماجم الغائبين. واريت الصورة في جوفي لأتزود بها في قابل الأيام. مدينتي الطيبة العذبة التي حينما أسير في شوارعها، احسب أني من سكان الفردوس. أستمتع بأحاديث فقراءها كأنها حكم يبوح بها نساك، وبضحكات شبيبتها التي هي أشدى من هديل حمام يطوف في بساتين مكتظة بالخضرة محملة بنسيم عطر ترمي بظلالها على ضفاف دجلة. عطر مدينتي أكثر ألقاً من ورد الشبو الليلي وهي تطلق أريجها في المساء، حينما تتفتح أزهارها فيملأ رئتيّ برائحة فواحة. مدينتي التي أودع، لهي أرق من العصافير وأبهى من عباد الشمس في الحقول وأجمل من طيور الشطآن.

ما هي إلّا دقائق معدودة حتى وصلنا إلى مبنى لا يبدو من واجهته الأمامية سوى طابق واحد علقت على واجهته لوحة خشبية بيضاء كتب عليها بخط أسود "وزارة الشؤون الاجتماعية" وفي السطر التحتاني "دائرة إصلاح الكبار قسم الأحكام الخاصة". استفزتني كلمة "إصلاح" رأيتها مثل لسان يندلع من وجه شيطان يسخر شامتاً بنا. أن نقبر هنا أحياء في نزل موتى يسمى عندهم إصلاحاً! لا ضير ولا عجب في ذلك، فهذه ليست المرة الأولى في التاريخ. فكل الأفعال الدميمة كانت تخفي قبحها وتضمر زيفها وراء مظاهر خادعة. ألم يختفي وراء قناع الحب شهوانيون قذرون يتشحون بثوب العذرية والنقاء، ويتزينون بنزعة شاعرية فيما جذورهم ضاربة أطنابها في غريزة بربرية، لا يهدف إلا إلى تكريس العبودية في أنقى وأخلص صورها.

أعتى الطغاة حكموا باسم الإله مدعين إنهم معينون منه، بينما كان الأنبياء مطاردين غرباء تلاحقهم تهمة الجنون يتسكعون مع الصعاليك والمشردين، وهم يحملون صلبانهم سلّماً إلى الحقيقة. إصلاح يعني أننا منحرفون يجب أن نعاقب ونؤدب لنمشي على صراطهم الأعوج ونكون عبيداً للأقوى الأخرق. منذ الأزل لا

يُعاقَب إلا من يقول الحقيقة، أما من يرد تجنب العقاب والبقاء خارج أسوار مدارس إصلاح السلطة فما عليه إلا مشاركة الناس وهم البقاء على قيد الحياة تحت مظلة العبودية. الحقيقة لا يقولها إلا من يرغب في الرحيل عن الزيف وأينما ذهب فسوف يعيش تحت شمس الحرية سواء إن كان في قبو مظلم أو قبر موحش أو تحت سماء نقية كالبلور.

ذبلت أحلامي الكبيرة، وبدأت تتساقط سريعاً كما تهوي الأوراق الصفراء من الأشجار في الخريف. يجب على من هو مثلي ألّا يسترسل في الأحلام كثيراً، وألّا يوهم نفسه بأنه يستطيع العيش مثل باقي الناس. تقيأت ما تبقى منها، وأنا أمر من تحت اللوحة الخشبية الساخرة وتساؤل يائس يعصف في أرجائي هل سيكون لي في هذا المكان من ركن ولو كان صغيراً أستظل به وأحتمي بدفئه من جور أخي الإنسان، أم أني سوف أصرف ما تبقى من حياتي أتنقل مثل طائر مهاجر ضال يبحث عن مأوى يحميه ولو في خربة مهجورة؟ هل على الإنسان لكي يكون، أن يضحي بالأمان؟ فعلاً إنه لأمر مرعب أن تكون كلفة إثبات المرء لوجوده ان يخوض مغامرة هائلة مثل

هذه، فليس من السهولة لكل أحد ان يتوفر على شجاعة كافية لعبورها.

2

صور سوداء تطوف في خيالي لسنوات قادمة يقتلها الضجر واليأس في وحدة حزينة ستمر عليّ في هذا المنفى، تشحب فيها الروح، ثم تتناهى لشيخوخة مرتجفة على عكاز تموت وحيدة عارية من كل أمانيها. كانت تتوالى عليّ ونحن ندلف إلى ممر طويل أشبه بنفق معتم لم تكن تبدو له من نهاية. تتدلى من سقفه زمرة متباعدة من مصابيح صفراء شاحبة لا تقوى على طرد الظلام الواسع فيه. بعد أن توغلنا لأمتار قليلة في هذا الدهليز المعتم أُدخلنا إلى غرفة جانبية صغيرة، كان ينتظرنا فيها رجلٌ له صوت عال حاد، قصير سمين يتدلى كرشه أمامه ومن خلفه، يلبس زياً خاصاً بالحرس التابعين لوزارة الشؤون الاجتماعية. فتح سجلاً وشرع بتدوين أسماءنا فيه، وهو يسألنا عن تحصيلنا العلمي، وما أن عرف أننا طلبة جامعيون حتى راح يسأل بدافع الفضول عن تخصصاتنا العلمية، وحينها بدأ بتوبيخنا قائلاً:

- ماذا تريدون أن تحصلوا عليه أكثر مما أنتم فيه، ألا

يكفيكم هذا المستوى؟ هل تريدون أن تصبحوا وزراء؟

بدأ يجيب على أسئلته بنفسه قائلاً: بأننا أصحاب نيات خبيثة لم نتلقَ تربيةً صالحة، وكلمات أخرى مقرفة، يمكن لأي أحد أن يتصورها وهي تخرج من لسان جلادٍ لم يكمل سوى تعليم متواضع كما دلّ عليه إملائه المتعثر وخطه المضطرب، وسؤاله الرتيب عن كيفية تهجي أسماءنا مع أنها مألوفة. واصل عمله بلا توقف مواصلاً طعننا بالشتائم وعبارات التأنيب. لم يكن يحتاج المرء لفطانة مميزة ليعرف أنه ذو طبع خسيس متدن، وأنه يتحرك من شعور بالنقص؛ فينتابه إحساس بأن كل سجين يمر أمامه انما قد سرق شيئاً منه، فيسعى للثأر منه. ضقنا ذرعاً بثرثرته فقال له أحدنا زاجراً:

- وماذا تعرف أنت عنّا، حتى تعرف ماذا نريد؟

قالها بصوت عال بشكل حاسم من غير أن ينتظر منه جواباً. فغر فاه وهو لا يقوى على تصديق أذنيه، فهنا على المرء أن يتلقى الشتائم وهو ساكت ذليل لا أن يرد عليها. جواب جريء لطمه على فمه فأسكته، وجعله ينكفأ على نفسه. كان بحاجة لهذا الازدراء، فهناك صنف من الناس لا يقدّر إلا من لا يقدّره، ولا يعرف قدر نفسه ولا قدر من يقابله إلا حين يدرك ان من يقابله يزدري سلطته. أن

تتعامل مع هذا الصنف في الوقت المناسب بلا تهيب منه ولا تخوف ليست شجاعة وحسب، بل حكمة أيضاً.

إذا كان من غير الممكن أن يخلو العالم من الوقحين فلم على المرء أن يكترث لما هو غير ممكن؟ فما هذا الحارس إلا مجرد واحد من أوغاد ووقحين كثر لابدّ من وجودهم. حريّ أن يُرثى لكل وغد منهم، لأنهم فقدوا إنسانيتهم ومن يفقد الإنسانية باختياره فهو أحمق، بل مجنون محض، وهل يعد من لا عقل له إنساناً؟ رفيقي الذي وشى بي لم أعد بعد فعلته أكترث لوجوده، فهل عليّ أن أضيع وقتي وأشغل بالي بجاهل لا يفقه ما يقول وأجعله خصماً لي؟ الحب والكراهية كلاهما طاقة ثمينة لا يصح أن تبدد إلا في من يستحق، ولا يستحقها إلا الأنداد، وليس كل الخصوم أنداداً.

3

عندما كنت في السابعة من عمري، كان لي صديق يماثلني بالعمر العب معه دائماً، ونتبادل الزيارات. في إحدى المرات رأيت على جدارٍ في غرفة المعيشة خاصتهم أشياء كثيرة معلقة مصنوعة من حبات نمنم ملونة لماعة. أبهرتني جداً لجمال ألوانها البراقة واستهوتني بمظهرها اللماع. سألت صديقي عن مصدرها، فأجابتني أمه لتشفي فضولي بدلاً عنه وهي ترى لهفتي الزائدة وإعجابي المتدفق، بأن لها أخاً في السجن هو الذي يصنعها ويرسلها إليها كهدايا في كل مرة يزوره أحد.

وقعت عيناي وأنا أخطو أولى خطواتي في الممر على صندوق زجاجي كبير متعدد الرفوف يحوي معروضات تشبه تلك الأشياء الحلوة الملونة المعلقة في بيت صديق الطفولة. كانت صورة الجمال تتراءى لي من قبل مثل وجه سيدة فاتنة بعيون تسطع كالنجوم تهمس برقة الملاك، واليوم انهارت مثل تمثال رمل وأنا أرنو ببصري

إليها. صرت أرى فيها ساحرة شمطاء تخفي بشاعتها بمظهرٍ مخادع. كم هو مقيت إضفاء الجمال على القبح، والأكثر مقتاً منه أن يصدق إنه بات جميلاً فعلاً؛ لأنه لا يرى سوى مظهره الخادع وتعمى الأبصار عن لبه الماكر.

تابعنا المسير، وطلب منّا حرس جدد بزي مدني انضموا لجوقة الترحيب الجلوس قرفصاء في قبال حائط أصم بلا معالم. رحت أسأله كم عدد الذين طالعت وجوههم؟ هل حفظت شكواهم التي بثت إلى السماء التي لم تفق إلى إسعافهم إلا بعد فوات الأوان؟ هل أودعت في قلبك أسماءهم لتخبر الأمهات اللاتي سيقفن أمامك حائرات يدرن في هذا الممر على غير هدى يبحثن ولا أحد ينزع قلقهن؟ بعد دقائق طُلب منّا أن نسير مهرولين باتجاه باب مصنوع من حديد ثقيل، وحينما بلغناه رأيت فوقه قطعة صغيرة مكتوب عليها "مخزن بطانيات". ظننّا بأننا سوف نزود ببطانيات، لكن ما أن فتح الباب حتى ولجنا إلى داخل مبنى كبير. أصابتنا دهشةُ كبيرةُ لمنظره، إذ كان من طابقين، خمس زنزانات إلى اليمين وأخرى مثلها على اليسار في كل طابق لكل منها واجهة مؤلفة من قضبان حديدية متقاطعة من أعلى سقفها إلى الأرض. جميعها مكتظة بعيون تعبى تحملها رؤوس

حليقة تتربع على أجساد هزيلة. أجلت عيناي حولي، أنظر بإمعان لأعرف المكان الذي نقلت إليه وقد بدا أني كنت أقف على شفير هاوية الجحيم.

أُستقبلنا بالهراوات من أشخاص خلناهم عناصر أمن، لكن تبين إنهم زمرة خونة راحوا يضربوننا بدون سبب مفهوم، ثم سُحب كل واحد منّا إلى زنزانة وحشر فيها. وجدت نفسي مع أربعة وأربعين شخصاً في زنزانة مربعة ضلعها خمسة أمتار وفي أحد الزوايا مرحاض صغير. بالقرب من هذا المرحاض كان محل نومي إلى جنب سجين أتم للتو غسل أكواب بلاستيكية وصحون معدنية، وراح يمسح عن الأرض آثار الماء بأجزاء من نعال إسفنجي خارج عن الخدمة وحينما انتهى من التجفيف أخذ النعال بعناية وعلقه بعناية في سلكٍ يتدلى من سقيفةٍ ثبتت على الحائط، وبدا لي بجلاء إن كل الأشياء لها قيمة هنا، وإن كانت على وشك الانقراض.

4

استلقيت تحت برميل ماء مشدود بإحكام، تطفو على سطحه ما لا يحصى من حشرات سوداء دقيقة الحجم تسللت من فتحات صغيرة للتهوية، صنعت من فراغات بين قطع بلوك إسمنتي لم تغلق تطل على ساحةٍ ترابية صغيرة مهجورة تفصل القسم الذي نحن فيه عن قسمٍ آخر مجاورٍ. تحولت الساحة إلى مصرف للمياه الآسنة ومكب هائل لنفايات لم يهتم أحد برفع ما فيها أبداً. امتد إلى جواري رجل تكمن السعادة في نظرته الوضاءة إلى الحياة وفي طيبة قلبه، راح يسدي لي نصائح مهمة، أهمها أن احذر من فلان وفلان. سأكذب لو قلت إني فهمت ما قاله، فكيف يمكن لمظلوم مسحوق تحت كل هذه العذابات والكراهية أن يكون ظالماً؟ حوار موجز أغلبه كان من طرفه، واقتصرت مساهمتي فيه على كلمة نعم وطبعاً. النتيجة التي استخلصتها منه أن هناك شيء اسمه "المراقب"، وهو بمثابة عين سلطة الأمن في الزنزانة.

أشرعت نافذة بصري على الجدران الإسمنتية السوداء

والأكياس الكثيرة المعلقة عليها، التي تضم أموالاً مهربة من الحكم القضائي بمصادرة المنقول منها وغير المنقول، وفي الحقيقة أنها كانت تحوي أسمالاً وخردة أشك أن يقلبها متسول بائس. ليس لها من قيمة البتة إلّا في هذا المكان.

تاه بصري في هذه الصحراء الممتدة حيث يضيع الزمن فيها، وأنا اتأمل رجلاً ريفياً طويلاً مثل شجرة تعبى تمادت في البقاء فأنهكها الزمن وتكفل بكل حرص إضعاف قدراتها. يتطلع بتهكم وسخرية في كل ما حوله، وهو يتكئ على خاصرته بذراعه اليمنى، وبالكاد يكاد يجد محلاً لقدميه. وقف وسط الجمع ضجراً. لم يكن يتمنى أن يهرب من نفسه فحسب، وانما كان يتمنى أن يزول من على سطح الأرض تماماً، وألا يبقى له أي وجود، بل أن يتحول إلى رماد. يردد كلمات تنم عن شخص انتبه بعد فوات الأوان إلى أن كل تطلعاته وأمنياته التي كافح من أجلها قد نالت منها تقلبات الزمن. لم يعد من خططه التي راكمها لقاء كدح عظيم، ومخاطر جسيمة، ورسم لها بكل حماسة، وأنجزها بهمة، سوى سراب خادع. أدرك بعد أن بذل الغالي والنفيس أنه كدّ من أجل لا شيء، وبات عاجزاً لا يجني سوى الخذلان.

وقف يردد عبارة بطريقة كوميدية سوداء وبلهجته الشعبية .

- هاي شيگضيها العشرين سنة هنا!

الاكتئاب أبغض تجربة يمكن للإنسان أن يمر بها، فهو ليس كأي حزن مهما كان ثقله باهضاً، فهو انعدام مطلق باستشعار السعادة، وغياب كلي للأمل. إنه فقدان شهية في فعل أي شيء وانفعال، فهو موت لأي رد فعل تجاه ما يحيط به، فلا من شيء أسوأ من أن يموت المرء حياً. مع ذلك فقد أضحكتني كلماته ضحكة من أقصى قاع قلبي، وعلى خلاف ما رأيت منه من يأس تولد عندي شعور عميق بأن كل ما نستطيع فعله لتعويض هذه المشقة هو أن نستمر بالحياة، ونتجاوزها مهما كانت عواقب القدر. كانت تلك الضحكة بداية كبيرة لموجة عظيمة من التفاؤل انبثقت من قواي الخائرة. سرت فيَّ شجاعة عظيمة جعلتني أحيل الصحراء التائهة بلا زمن إلى أرض خصبة حبلى بالعطاء، ليست كالشوارع والأرصفة التي لفظتنا وصارت علينا سيوفاً بتارة تحز الرقاب، بل بدت لي أرضاً تجمع كثيراً من الطيبين. كان منهم طالب جامعي يدرس القانون ومثله كثير كان هناك ممن لم يكمل دراسته؛ لأن السلطة استبقت ثمرة نبوغهم فأجهضت أحلامهم وكسرت سلم ابداعهم ونجاحهم

الـذي كـانوا يتسـلقون بلهفـة وحمـاس. رأى هـذا الطالـب إجهـادي وصـعوبة تنفسـي وأنـا أضـطجع تعبـاً مـن مـرض السـل الرئـوي الـذي وفـدت إلـى الزنزانـة الجديـدة أحملـه معـي مـن المعتقـل، فـراح يحـرك هـواء الزنزانـة المظلمـة الرطبة كما لو أنه يهدهـد طفـلاً إلى أن خيمت عليّ غفـوةُ عميقة توائم بدني الذي كان يتجه نحو نقطة حرجة بسرعة كبيرة في الأسابيع الأخيرة. وقف يظللني مثل نخلة مريم يـُساقط عليَّ مـن منشـفة باهتـة الألـوان بـلا كلـلٍ ولا ملـل نسمات هواءٍ علّي أنجو من ورطتي وهو يراني أبحث عـن الهـواء بأنفـاس عميقـة. ابتسـمت روحـي لهـذا الأريـج واتقدت منتشية به، وشعرت برعشة تسري في جـوانحي كـأن نفسـي تشـرق. أي فـيض مـن البهـاء هـذا وأيّ خضـرة داكنـة نبتـت علـى جـدران الإسـمنت يفـوح منهـا شـذى عبيرهـا العطـر. قـد عـدت إذن إلـى عـالمي الـذي أحلـم بـه حيث تضوع ريح الأنبياء، حين تلامس الأمـوات فتحييهـا وتـرش المـاء علـى طـين رخـيص تسـحقه الأقـدام فيطيـر محلقاً بأمان عظام ويذرق على الذين أخلدوا إلى الأرض منسـلخين مـن إنسـانيتهم اللاهثين فـي أحـوالهم كلهـا ولا يصدر عنهم إلّا أنكر الأصوات.

5

بـين تحـذيرات صـاحبي مـن الخونـة وبـين هـذين الموقفين تشتتت مشاعري وتاه فكري وصرت بين حذر واطمئنان في الوقت عينه. علمت أن الكلام أو الإشارة إلى أي شخص في زنزانة أخرى جريمة يُعاقب عليها السجين بقسوة؛ ولذلك حين تبادلنا النظرات أنا وأحد رفاقي في زنزانة مقابلة، لم أبادله التحية كما حاول أن يفعل، بل هربت من أمامه؛ لأن ذلك كان سيؤدي إلى عقوبة مشتركة نتقاسمها. فقد كانت المكائد والدسائس والوشايات والنمائم تحتل المقام الأول في تلك الحياة التي نعيشها.

تأملت سكان الزنزانة جميعاً، وبدا مشهداً غريباً بالنسبة لي. كانوا يتفاوتون بالمستوى الثقافي والتعليمي، ولا يبدو على أغلبهم أنه مارس عملاً سياسياً أو فكرياً معارضاً. كنت أدرك مدى قسوة التعذيب ومخرجاته، لكن لم أكن أتوقع أن يكون موجوداً كل هذا العدد من أناس لا علاقة لهم بما كنّا نفعله قبل الاعتقال من مقارعة

السلطة.

أيّ ظلم هذا الذي يزج بأبرياء لا علاقة لهم لا من بعيد ولا من قريب في سجون مخصصة للسياسيين. كانت هذه صدمة كبيرة بالنسبة لي؛ لأني بدأت اكتشف وجوهاً وحشية أخرى لم أكن قد أدركتها حتى تلك اللحظة. أصبت بارتباك كبير، فقد كنت أظن أن السجن مكان لطبقةٍ واحدة عشت معها في مراحل حياتي السابقة وتقاسمت معها الهموم والنشاطات والتفكير والتطلعات، غير إن الأمر ليس كذلك. عليّ الآن أن أحسن التصرف مع هذه التضاريس المعقدة. التضاريس ليست التنوع الطبقي الاقتصادي ولا التفاوت التعليمي فقد ألفت هذه التناقضات، إذ إن المنهمكين بالعمل السياسي لهم مشارب متعددة، لكن أن تجد نفسك في سجن سياسي وحولك مجموعة تتعرف على العمل السياسي لأول مرة فهو شيء آخر تماماً. الصعوبة لم تكمن في هؤلاء فقط، بل أن يكون بعضهم غير مؤمنٍ بهذا العمل، ويزداد التعقيد حينما يكون مقتنعاً بالضد منه، بل ويربي على ذلك إعلان حماسه ضد المعارضين السياسيين وتحميلهم ما حصل له. هذه التنوعات كانت واضحة جداً في أول زنزانة دخلتها في السجن وكان الأمر بمثابة صدمة أولى

لها تداعيات سوف تظهر لاحقاً، ورغم ذلك فقد كان في الزنزانة نفسها أشخاص متميزون.

قبل منتصف الليل يطفأ المصباح الشاحب الوحيد، وعلى الجميع بأمر من إدارة السجن أن يذهب إلى نوم إجباري. كانت الزنزانة ضيقة إلى حد كبير بالعدد الذي فيها (خمسة وأربعون سجيناً) وخانقة بجوها الذي تشيع فيه رائحة تبعث على الغثيان. بلاطها الإسمنتي الكئيب فرشت عليه بطانيات سوداء رقيقة. كان النوم مهمة عسيرة إذ لا يمكن الرقاد إلّا على الجنب ويستحيل النوم على الظهر في أي لحظة؛ فكان لابد من ترتيب نوم السجناء بطريقة التخالف، أي قدمي سجين إلى جنب رأس سجين آخر. لا يوجد مجال على الأطلاق لرأسين متجاورين، ولو اضطر أحدهم إلى النهوض لسبب ما خارج عن إرادته، مع إن النهوض وقت النوم كان ممنوعاً يعاقب مرتكبه بقسوة، وفي مغارة كالتي نعيش فيه، لا يمكن أن تطير حشرة إلا ويبلغ الخونة نبأ طيرانها إلى عناصر الأمن، ومع ذلك فإنه لو أفلت من مراقبتهم فسوف يقع في مشكلة أكبر؛ لأنه لن يجد فراغاً يضطجع فيه حين يعود، ويصبح لزاماً عليه مدافعة الأجساد المتلاصقة كي يحشر نفسه ثانية بينها.

في الليلة الأولى كانت إلى جانب وجهي قدما شاب برأسٍ حليق مع صلع خفيف يرتدي ثياباً خلقة كالآخرين، وتبدو على وجهه آثار واضحة من عصبيةٍ وتوتر دائمين يعكسها جبينه المتغضن. ذهبت في غفوةٍ عميقة من إرهاق المرض ويوم المحاكمة الطويل، وعلى حين غرة شعرت برفسة قدمٍ بشرية تركلني على فكي. كان لها دوي مثل الرعد بددت النوم العميق من رأسي. استفقت فزعاً أحسب أنهم يوقظوني عنوة. نهضت مذعوراً خائفاً مصدوماً الدم يملأ فمي، متوقعاً الأسوأ قبل أن أتبين إن صاحبي الممتد إلى جنبي كان ممن يحلم كثيراً أثناء نومه، ويتحرك منفعلاً مع كوابيسه المزعجة وشاطرني كابوسه برفسةٍ قوية. عدت لأرقد من جديد على وسادة صنعتها من حذاءٍ متهرئ كنت أنتعله بانتظار طلوع النهار من جديد ليسمح لنا بالحركة المحدودة في الزنزانة.

6

عند الصباح دخل عناصر الأمن إلى قاعة السجن مع توزيع وجبة الطعام الأولى يحملون هراوات تأهباً لتعذيب أحدهم. وقف أحدهم أمام الزنزانة بصحبة سجين مسؤول عن توزيع الأكل (يسمى خدمات)، وطلبا من شابٍ نحيف بجسدٍ ضئيل لا يتجاوز عمره السابعة عشر عاماً أن يخرج إلى الممر العريض. اقتادوه بعنف، ولم نعد نسمع منه سوى جلبة نواح غير متناه. أعادوه إلينا بعد ربع ساعة تقريباً بوجه يعلوه الشحوب بعد أن تم تعليقه من أطرافه العليا في حالة تشابه التعذيب الذي كنا نتلقاه في مديريات الأمن لإجبارنا على تقديم الاعترافات. اعتراني خوفٍ جارف اقترب من الرعب وشعرت بألم حاد بلا تعذيب. استذكرت التحقيق والعذابات التي تحملتها يومئذ وكنت أظن أنها انتهت، فالسجن لا يوجد فيه تعذيب ممنهج. من الممكن أن أعاني فيه من ضيقٍ في مكان أو ينالني نقصٍ في طعام أو شراب كما حصل في المعتقل بعد انتهاء التحقيق، وربما

أنال ضربة من هذا وهراوة من ذاك، لكن تعذيب منهجي لم أكن أخاله موجوداً. بدا الأمر كما لو كان عودة إلى مربع أول يأبى أن يكون له حد تنتهي عنده حمولته من العذاب والآلام.

حاولت أن استفهم عن سبب هذا التعذيب الصباحي غير المبرر، لأصدم بأنه لا يوجد سبب، ومع غيابه صار واضحاً أن لا شيء يمنع من نزول العقاب بأيّ سجين، مهما حرص على أن يبعد الأذى عن نفسه. كان خوفي مبرراً جداً؛ لأن السبب الحقيقي لتعذيب هذا الشاب اليافع لم يكن سوى أنه لا يروق لأحد عناصر الأمن. ففي يوم ما دخل شرطي إلى قاطع السجن ووقف أمام الزنزانة ولسبب ما أشاح هذا الشاب بوجهه عنه بلا قصد الازدراء، لكن لم تعجبه هذه الحركة، ولم يقبل له عذراً؛ فاشتدت العداوة منه لهذا السجين فكان عليه أن يدفع ثمن هذه العداوة بين الحين والآخر. هذه الغلطة التي لم تغتفر، لم أعرف شرعة أو قانوناً تعدها ذنباً أو خطيئة إلّا في ذاك اليوم. أبشر بطريق طويلة احتزمت بزنار عذاب الهاوية، ولا يمكن لأيّ أحد فيها أن يغادر حلقتها الأولى؛ لأن الثانية هي الأولى والأخيرة هي البداية.

جسدي محطمٌ من المرض وقواي خائرةٌ بالكامل لا أقوى على أداء أيسر الحركات، وكان هذا سبباً حقيقياً آخر لتخوفي مما رأيته للتو؛ لأني لم أعد بقادرٍ على تحمل التعذيب. ذعري مما جرى رسم في الحال الخوف والفزع على وجهي، فقد كانت مفاجأة مرعبة ونموذجاً مخيفاً لما ستكون عليه قادم الأيام، ولا شيء يعذب الإنسان مثل كتمان خوفه وحزنه. إنما أن تكون قلقاً في هذا المكان ليس بالأمر السيء دائماً، وإن كانت الصيغة المفضلة للارتياح هي الطمأنينة. فليس من المناسب هناك الاعتقاد بأن هذه المخاوف مبالغ بها، وأن هذه الحوادث البشعة لابدّ أن تنتهي. بالعكس من ذلك فقد كانت الطمأنينة هي الترياق الأقسى، إذ أن التوقعات الوردية ستترك أي شخص غير مهيأ للأسوأ، وسوف يظن أن الوضع بات كارثياً لو حلّ أمر مذموم؛ لذا كان من الحكمة التوقع دائماً بأن شيئاً مفجعاً قد يحدث في أي لحظة، وحينما يحصل فإنه من الأرجح لن يكون أسوأ مما توقع.

الزنزانة التي وضعت فيها كانت واحدة من أردأ الزنزانات، بوجود مراقب بأخلاق وضيعة للغاية، جبان رعديد لحدٍ لا يوصف، يقدم معلومات أمنية عن السجناء

الآخرين إلى الأمن بطريقة طوعية من أجل لقيمات زائدة وشربة ماء إضافية. المراقبون، كان تعيينهم يتم من قبل الخدمات بموافقة الأمن، وكان أغلب الخدمات والمراقبين في الفترة التي دخلت فيها السجن من المتعاونين مع الأمن. خصوصاً الخدمات فقد كانوا يقومون بكل الأفعال الخسيسة حتى تصل بهم الدناءة والنذالة إلى تعذيب السجناء بأيديهم. باعوا أنفسهم وضمائرهم للأمن بشكل كامل، بل كانوا أشد قسوة منهم في بعض الأحيان. كل ذلك مقابل أجر زهيد وهو أن يناموا خارج الزنزانات المكتظة في مكان أكثر راحة بقليل مما نحن فيه، ويأكلون من الأكل البائس نفسه الذي يقدم لنا لكن بحصة أكبر. مقابل هذه المنح الوضيعة كان عليهم أن يراقبوا السجناء ليل نهار على كل صغيرة وكبيرة، ويتولوا بأنفسهم تقديم المعلومات عن أي مخالفة ولو كانت صغيرة لإنزال العقاب المر بالسجناء.

الأمر الغريب الذي شكل صدمة لي أن عدد المنافقين لم يكن قليلاً، إذ في زنزانة يسكنها خمسة وأربعون شخصاً كان هناك متعاونان بصورة علنية واضحة لا شك فيها ولا لبس، ينضم إليهما آخران مذبذبان كانا محل خشية سجناء الزنزانة، ولربما هناك شخص خامس لم

تسنح له الفرصة لفعل ذلك؛ لأن وضعه الجسماني لا يساعده على أداء هذه المهمة الحقيرة. وبحساب الرياضيات كانت نسبة الخونة الأكيدة تقارب الخمسة بالمئة وهذا الحال يسري تقريباً على كل الزنزانات الأخرى، وأقدر أن أقول إن نسبة الخمسة بالمائة كانت فعلاً هي نسبة الخونة من المتعاونين ممن جاهروا بخيانتهم العلنية وصاروا بمواجهة كل السجناء في عداءٍ علني له قصص كثيرة. إلّا إن المفارقة تكمن فيما حصل لاحقاً، فرغم تبدل الأحوال بعد ذلك وانقلابها رأساً على عقب، فإن قليل من السجناء قام بأعمال انتقامية ضدهم، كما كانوا هم يفعلون معهم. من يحارب الوحوش عليه أن يحرص ألا يصبح وحشاً، والماء الراكد في مستنقع آسن يهتز سكونه بحجر صغير، أما البحر الواسع فلا يضطرب، حتى لو جرت فيه أساطيل أو استقرت في قعره.

7

لم يكن من السهل الاقتناع بأن المرء يستطيع التأقلم مع هذا العالم، لولا بصيص من كبرياء لم أزل أتشبث به، وإلا فإن وجود أي مخلوق هناك كان عرضة للانهيار والاهتراء. كنت متوجساً جداً في أيامي الأولى في الزنزانة، ومع إني خبرت سكانها جيداً، إلّا إن الحذر كان سمةً لازمةً في جميع أحاديثي وحرصت أن تكون سطحية جداً لتبعد أي شبهة عني. العزلة التي لجأت إليها بمحض اختياري كانت أسلم طريق لتحاش معاناة قد تتولد من الاحتكاك بالآخرين. ومع ذلك كان يجب أن أبقى في ذهني احتمالية وقوع كارثة في أي لحظة محملاً بسوء الظن والحذر الدائم، فهو السبيل الوحيد لتقليل الإحباط إذا ما حصل ما لا يتوقع. لا محل للتفاؤل وحسن الظن في دوّامة لا شيء مستقر فيها، فهما سلوك غير محمود العواقب، بل سلوكاً خطيراً يستهجنه كل عاقل لما فيه من السذاجة المفرطة.

فوجئت بشيء كنت أملكه ولم أحسب أنه سينفعني

كثيراً، وعلى قلة أهميته المادية الظاهرية، فقد كان لوجوده سبباً في تبدل حالي وتغير وضعي، بل إنه منحني حصانة من وشاية المخبرين. وقتما دخلت السجن كان معي قليلٌ من النقود حصلت عليها من زيارة أهلي في المعتقل، ولم أخال أنها ستنفعني بشيء أبداً في هذا المكان المقفل؛ إنما للمال سلطان كبير فحتى الأخرق يصبح به ذا شأن فكيف به في السجن. نعم، بإمكانه أن يخفف من آلام صاحبه أكثر مما يتألم الذي لا يملك منه شيئاً، لكنه لا يحقق السعادة والأمان لأحد. وهنا أيضاً لم يكن يؤمن للسجين حاجة حقيقية، بل كان يوفر له حصانة من الوشايات والعقاب، وربما يشعره بوجاهة وهمية. كان البعض بحاجة لهذا الشعور، إذ لولاه لسيطر عليه الضجر والسأم، ولخيم عليه الحزن والشجن المستدام.

كان أفراد الأمن بين حين وآخر يسمحون للسجناء باستخدام ما عندهم من أموال قليلة لشراء الحليب المجفف ومعجون الأسنان وأشياء أخرى يسيرة، إلا إن علب الدخان كانت المادة الأنفس التي تشرأَب إليها الرقاب وتلوى لها الأعناق، وهي مطمع دائم للمراقب وأتباعه ولا سبيل للوصول إليها إلّا عبر أموالي؛ ولذا صارت استراتيجية المراقب المحافظة على علاقة طبيعية

معي؛ لأن خلاف ذلك يعني حرمانه منها. كان حريصاً على إبعادي عن أنظار الأمن وأذاهم خشية أن أنقل إلى زنزانة أخرى فيضيع الكنز البورجوازي من بين يديه. رغم ذلك لم تشجعني هذه الحصانة على التهور ولا على التفريط بسلوكية توخي الحذر المكثف والاقتصاد في العلاقات والأحاديث مع رفاق الزنزانة بشكل عام، وبالطبع كنت أتجنب المراقب تماماً وأتحاشى أي تطور للعلاقة معه.

كان أحد السجناء يتقرب أليّ بتملق زائد، وقد وضع نفسه في منصب أمين صندوق السجائر التي أشتريها. كان انتهازياً رفيع المستوى وفوق ذلك يتوفر على قدرة هائلة على الكذب، واختلاق الأحداث، والوقائع، والأشخاص. لا يكاد يفتح أي موضوع للحديث، مهما كان الموضوع غريباً وبعيداً عن عالمنا إلّا وأظهر أن له صلة عميقة به، وإنه مشارك بهذا الحدث بطريقة أو أخرى. ما كان علينا إلا أن نتظاهر بتصديقه؛ حينئذٍ يعبأ بجرأة إضافية ويندفع للكذب بقوة هائلة. في يوم ما طرح حديث عام، وذكر أحدهم لسبب لا أذكره دولة أرتيريا التي كانت حينها ترزح تحت السيطرة الإثيوبية، فانبرى هذا الرجل وقال هل تعرفون من فجر الثورة الأريتيرية ضد الاحتلال

الإثيوبي؟ لم يرد عليه أحد؛ لأنه موضوع لم يكن يستأثر باهتمام أحد من الجالسين، ولا أظن أحداً منهم بما فيهم أنا عرف يوماً من فجر هذه الثورة. انتظرنا جوابه الموسوعي ليقول لنا إن ابن خالته "جاسم" قد فعل ذلك! لا تنقطع بطولاته ومآثر عائلته إلّا حين يدخل عنصر أمني إلى القسم، وحتى قبل أن يقف قبال زنزانتنا كان صاحبنا هذا يتحول إلى دجاجة مسكينة تفقد صوتها من الرعب ما أن تسمع بوطء نعال من يحبسها في القفص، كما لو أنه جاء ليذبحها. ولا أدري كيف كان سيكون حاله لو رأى عصا الجلاد فعلاً تهوي على رأسه، وبالتأكيد إن وضعه في مرحلة التحقيق يفضل السكوت عنه.

8

بعد عشرة أيام من دخولي السجن، وعند غياب الشفق، دخل ضابط أمن، بل وحش نيروني يتلذذ بمعاناة من حوله ليشرع في ارتكاب مجزرة بشعة. هذا الضابط المعروف بقساوته، يدعى غالب الدوري وهو ابن شقيقة عزة الدوري نائب الدكتاتور. عُرف هذا الضابط ببشاعة ظلمه وبارتكابه لجرائم تعذيبٍ كثيرة بحق السجناء، كنت شاهد عيان على بعضها، إلّا إن أبشع جرائمه كانت في استبدال السجناء السياسيين ممن قضوا محكوميتهم من صغار السن بمجرمين عتاة محكومين بالإعدام مقابل رشاً مالية. لم تصل جثثهم بعد تنفيذ حكم الإعدام بهم، بل صودرت شهادة الجنسية وهويات الأحوال المدنية الخاصة بهم من عوائلهم، وأبلغوا بإعدامهم شفهياً وظلوا مصير مجهولاً. لم يتفطن أحد لهذه الحيلة التي كان يقوم بها هذا النقيب البربري؛ لأن المحكومين من أمثالنا كانوا محرومين من زيارة الأهل ومن كل حقوقهم، وأخبارهم مقطوعة تماماً ولا يُعرف عنهم شيئاً، بل ويعدون من

الأموات؛ لذا من المستحيل أن يفكر أحد بالسؤال عنهم، فهو خطٌ أحمر لا يصل إليه أحد إلّا وعرض نفسه لعقاب صارم. لهذا السبب كان واثقاً للغاية من ان لا أحد سوف يجرؤ على الاستعلام عما يجري ويستعين على إرهابه وعدم التفكير بالنبش وراء خطواته وأفعاله بصلة القرابة من نائب الطاغية عزة الدوري.

كان يتفق مع المجرم المحكوم بالإعدام على مغادرة البلد فور إخراجه من السجن وبذلك تختفي آثار الجريمة، غير إنه في إحدى المرات أحد المجرمين استسهل الأمر ولم يغادر البلد على الفور حسب الاتفاق. ولحسن الحظ بينما كان يمشي في أحد الشوارع المهمة في العاصمة، لمحه ضابط شرطة جنائي كان قد أجرى التحقيق معه بنفسه، فاستوقفه وسأله عن كيفية خروجه من السجن وهو محكوم بالإعدام؟ أثارت أجوبته الهزيلة المرتبكة ريبة ضابط الشرطة فألقى القبض عليه في الحال، لارتيابه بأنه قد فرّ من السجن. عند التحقيق معه أكتشف المحققون الأمر الأدهى حين علموا بأمر استبداله بشخص آخر من السجناء السياسيين بالتعاون مع غالب الدوري. وتبين فيما بعد إن هذه ليست الجريمة الوحيدة، بل واحدة من سلسلة جرائم وقعت لأشخاص كُثر طار

غروره وأجرامه بهم إلى غابة في السماء مزدحمة بأرواح الأبرياء وإلى مقابر سكانها بلا هوية تعريف سوى آثار حبال التفت على رقابهم أو نخور في أجسادهم استقر فيها الرصاص.

إثر هذه الفضيحة أبعد من وظيفته كمشرفٍ على السجن الذي كنّا نُحتجز فيه، مما خفف علينا كثيراً من جرائمه الهمجية التي كان يرتكبها بشكل متلاحق، لكنه لم يتلقَ عقاباً قاسياً، بل أبعد إلى السلك الجنائي كما كان يفعل مع ضباط الأمن المغضوب عليهم من السلطات العليا كعقوبة له على تعاطيه الرشوة. فأرواح السجناء السياسيين لم تكن ذات أهمية بالنسبة للسلطة القمعية، لا يكترث أحد لحياتهم كما إن قرابته من رأس السلطة وفرت له الحماية الكافية.

في تلك الليلة دخل هذا الضابط إلى السجن وكانت ليلة عيد الفطر، فطلب من عناصر الخدمات والمراقبين أن يقدموا أسماء جميع السجناء الذين امتنعوا عن الأكل والشرب في نهار ذاك اليوم لأسباب دينية. لم يكن طلبه سؤالاً استفهامياً، بل إنه كان يبتغي أشخاصاً يعذبهم ارضاءً لساديته فوجد في الصيام حجة، ولم يكن يهمه إن صاموا فعلاً أو لم يفعلوا، وبالفعل كان بعضهم غير

صائم. عناصر الخدمات والمراقبون كانوا يحملون من الجبن والخوف من العقاب حداً كبيراً إلى المستوى الذي لا يستطيعون معه أن يمتنعوا عن إجابة هذا الطلب المتهور أو الوقوف بوجه هذا الكائن المهووس بالتعذيب. قد علموا بنيته الأكيدة بإنزال عقاب صارم بالسجناء، حين جاء مع مجموعة من الأمن مجهزة بهراوات خاصة لإقامة حفل تعذيب في تلك الليلة فانصاعوا لتوقه مذعنين خنوعين.

بدأت المجزرة، كل من يرد اسمه فهو مذنب وإن أثبت بألف بينة ودليل أن لا ذنب له، وهو الأسلوب ذاته الذي كان يجري في التحقيق، التهمة والشبهة هي الجريمة والذنب. خلال دقائق جلس في الفناء العريض عددٌ كبير من السجناء، من زنزانتنا فقط أُخرج اثنا عشر شخصاً وكان هناك تسعة عشر زنزانة مشمولة بالعقاب. بدأت حفلة تعذيب لمدة ساعة تقريباً، يمر أربعة من رجال الأمن مع أربعة آخرين من الخدمات على طابور السجناء وينزلون بأقصى قوة عندهم ضرباً عليهم بالعصي والهراوات. ضجّ المكان بصرخات الألم وسط صمت وخوف ملأ المكان كلّه. لم يتوقف الضرب حتى بعد أن أغمي على عدد من السجناء، إنما انتهت الحفلة في

فصلها الأول حينما شعر الجلادون بالتعب والإرهاق لتبدأ فصلاً جديداً. أفرغت الزنزانة العشرين غير المشمولة بالعقاب، لأنها كانت مخصصة للمصابين بمرض التدرن الرئوي. تم نقل المرضى إلى قسم الحجر الصحي، ليوضع بدلاً عنهم في هذه الزنزانة المتهمون بالعصيان، بزحام رهيب. لم يكتفِ الضابط بهذا العقاب، بل أمر بوضع بطانيات على القضبان الحديدية ليسد عليهم كل نور، وخفضت حصتهم من الطعام والماء إلى النصف، وهي حصة بالأصل لم تكن تكفي لسد الرمق، وظلوا على هذا الحال عدة أسابيع. الغريب في الأمر إنه بعد أن أخرجوا من هذه الزنزانة لم يكونوا فرحين جداً كما كنت أتوقع، بل بدا الأسف على وجوه بعضهم أو كلماتهم. حينما سألت أحدهم عن سبب هذا الشعور الغريب قال لي:

- كان مكاناً آمناً لا يوجد فيه مراقب متعاون مع الأمن، والبطانيات كانت تحجب الرؤية عن رجال الأمن والخدمات، لذلك كنّا نتصرف بحرية كبيرة، فنتكلم بما يحلو لنا ونفعل ما نشاء. نقص الضوء والأكل والشرب فهو أمر أهون بكثير من رعب دائم جراء ملاحقة عيون الخدمات والأمن لنا ليل نهار كأنه دوامة جحيم ما لها من

انقطـاع. كـلام غريـب، لكنـه كـان مقنعـاً للغايـة. هـذا الإحسـاس بفقـدان الأمـن صـار فيمـا دافعـاً لكثيـر مـن السـجناء للمخـاطرة والقيـام بـبعض التصـرفات الممنوعـة للحصـول علـى فرصـة كهـذه. أيـة أفكـار هـذه وأيـة رغبـة بالعقـاب لأجـل الخـلاص مـن العـذاب يمكـن لأحـد أن يتصـور وقوعهـا ولا يصـف صـاحبها بـالجنون، ولكنهـا كانت شجاعة ودهاءً تصرفاً معقولاً في زمن اللامعقول.

بعد تلك الليلة المرعبة تناقص عددنا في الزنزانة إلى ثلاثة وثلاثين سجيناً. حصل انفراج كبير في المنام لليلتين تقريباً، وبسبب هذا النقص الكبير في العدد حشر معنا سـجناء جـدد كـانوا يصـلون تباعـاً مـن محكمـة الثـورة، وارتفع العدد تدريجياً خلال أيام قليلة وصرنا من جديد خمسة وأربعون شخصاً. لما رفعت العقوبة عن المعاقبين طلب منهم العودة كلٌّ إلى زنزانته التي خرج منها، وفي لحظـة واحـدة قفـز عـددنا إلـى سـبعة وخمسـين سـجيناً؛ فأصبحت الزنزانة مكتظة بشكلٍ مثير للاشمئزاز. لم يعد هناك من مكان للنوم ولا حتى للجلوس، وضاعف من تقززنا حصول حادث غريب تلقينا بسببه عقوبة جماعية قاسية؛ فالمصائب لا تأتي فرادى كما يقولون.

9

كان رجال الأمن يغيرون الزنزانات لسبب مجهول، يأتون ويطلبون منّا أن نخرج ونذهب إلى زنزانة أخرى فيما يأتي سجناء آخرون محلنا. انتقلنا إلى زنزانة جديدة تقع في ظهر قسم آخر يوجد فيه سجناء سياسيون يعيشون بمثل ظروفنا، يسمى (ق٢) اختصاراً لاسم (القاطع المغلق الثاني)، ونحن في (ق١). حينما ننتقل إلى زنزانة جديدة نبدأ بالبحث عن ثقب صغير بين الجدران لنحشر فيه شناقاً نعلق به (عليجة) تحوي أملاكنا من ثياب أو أشياء أخرى. لم يكن من السهل إيجاد تلك الثقوب لحشر الشناق الحديدي؛ فكان لابد من الاستعانة بشيء ما للطرق والحفر قليلاً بين قطعتي البلوك حتى يحصل على موقعٍ ثابت نوعاً ما. كان أحد السجناء يملك حذاءً قديماً، لا يصلح للانتعال أبداً، إلّا انه يحتفظ بكعبٍ صلد ينفعنا كمطرقة. بعد أن انتهينا من استعماله، ولأن عددنا كان كثيراً جداً وامتلأت الزنزانة بالبشر والأغراض، تفتق ذهن صاحبه عن طريقة مبتكرة للاحتفاظ به إذ ربطه بحبلٍ

صنعه من أسمال بالية وأخرجه من فتحة التهوية الوحيدة في الزنزانة ليتدلى في الخارج، كي يتمكن من سحبه ثانية عند الحاجة إليه.

في المساء جاء عنصر أمن مع أحد الخونة المتعاونين من (ق٢) يدعى "صباح" ليلقي علينا تهمة الاتصال مع السجناء في (ق٢)، فادعى إنه رأى يداً تمتد من فتحة في زنزانتنا تلوح إلى شخص ما. وجب علينا بعد هذا الاتهام تحديد اسم الشخص المتهم بالتخابر من بين نزلاء زنزانتنا، ومن ثم عليه أن يعترف على الشخص الذي كان يتخابر معه. أصبنا بالذهول من هذا الموقف الغريب الذي لا أصل له، وحرنا في كيفية الخروج منه. لم تفد كل محاولاتنا بإقناع العنصر الأمني بأن القصة وما فيها كانت إن أحدنا قد أخرج الحذاء من فتحة الشباك ليس إلّا، ورفض هذا التبرير بشكل مطلق بل لم يلتفت إليه أبداً.

كان مراقب الزنزانة "معمر" شخصاً أجوفاً ضعيف الشخصية، جباناً رعديداً اعتاد الخضوع، وضيعاً إلى حد بعيد، ولا يجرؤ على رد أي اتهام، حتى لو رمي به هو شخصياً. كان من نوع يخطط لنيل ملذاته على حساب معاناة الآخرين، ولا يتوقف عن الدسائس، وتدبير

المكائد. كان ظالماً بطبعه رغم خوائه وضعفه. يحب الوشاية والنفاق، والسلطة تشكل عنده غاية المتعة ولو كانت على حجر. بذل غاية جهده ليرمي التهمة على أحدنا ويتخلص من هذه الورطة، وبذلك كان يبحث عن مزيد تملق إلى الأمن والخدمات، ولا شيء عنده أسلس من التملق. كان لا يأمن إزاحته من منصبه، أو أن تتم معاقبته لو فشل في تقديم اسم متهم بهذا الذنب المخترع.

لم يتقدم أحد لتحمل التهمة فعاقبنا الشرطي بإخراج عشرة منّا بشكل عشوائي وأوسعهم ضرباً. ثم هدد بأنه سوف يعود مع كل وجبة طعام ليختار عشرة أخرى للعقاب. صرنا في حيصٍ وبيص لا نعرف سبيلاً للخروج من هذا المأزق، علينا أن نقدم المذنب وإلّا فإن العقوبة ستطالنا جميعاً. صار الخونة يبحثون عن قربان بغرض التقرب إلى آلهة الظلام وإرضاءها درءً لغضبها، ونحن على يقين من بطلان ادعاء المخبر؛ لأنه أصلاً لا يمكن لأحد أن يرى أحداً من ذاك البعد بين القسمين ومن خلال هذه الثقوب الصغيرة. إضافة لذلك كنّا نزلنا للتو في هذه الزنزانة ولا يمكن في يومنا الأول أبداً أن نعرف من يسكن قبالنا أو من خلفنا. أنى ألتفت وأنى أتجه وأنى

أنظر أرى عذاباً جديداً في الانتظار، كأنها حلقة من مطر حجارة أبدي لعين لا يتوقف حتى يفنى سكان القرية بأسرها. إلا أنه لا نبيًّ بيننا قد كذبناه، ولا من فاحشة أشعناها، بل مزاج الآلهة هو الذي تغير فاصطفت مع عجوز الغابرين.

استمر الحال على ما هو عليه وفي صباح اليوم التالي أُخرج عشرة آخرون ليتلقوا العقاب الجماعي، وأصبحنا مع كل وجبة طعام يأتي إلينا رسول العذاب فنقدم له عشرة قرابين عقاباً على التأخر في جلب الأضحية الفداء والكبش العظيم الذي سوف يخلصنا من شرور آثام لم يرتكبها أحد. ثمّ ازداد الأمر سوءاً حينما أصدر المسؤول الأمني أمراً بمنعنا من الوقوف في الزنزانة مطلقاً؛ فكنّا حينما نريد الذهاب إلى الخلاء علينا أن نقفز إما مثل الأرانب أو نزحف كالسلاحف. كان وضعاً قاسياً تكبدنا فيه محنة إضافية لكل ما نحن فيه من ظروف شاقة وأليمة.

مرت ثلاثة أيام بلياليها ونحن على هذا الحال إلى أن اقتنع المسؤول الأمني بأن المخبر متوهم فيما يقوله، بعد أن تصدى لإقناعه شاب شجاع ذلق اللسان استخدم ما في جعبته من كلمات منمقة في خطاب كان كذباً من أوله

إلى آخره. بالغ في مدح رجل الأمن، ووصفه بأوصاف لم يكن يحلم ان يسمعها، لأنه أدرك بنباهة أنّ هؤلاء يسكرون بخمرة الكذب والتملق فزاده منها بدلا من الكأس أبريقا. مهما كان تملقه مفضوحاً فإنه انطلى عليه، بل كان يصغي إليه شاعراً بلذة وزهو وغرور أطاحت برأسه وليس عقله لأنه لم يكن يحمل منه شيئا. سروره ومتعته سهلت إصدار عفوه علينا، بعد أن تلاعب به صاحبنا ببراعة، وبشجاعة أيضاً، لأنه لو لم ينجح بإقناعه لوضع نفسه في فوهة المدفع ولتجرع عقوبة قاسية فوق ما كنّا فيه من العذاب.

10

واصلت صحتي الانحدار السريع وهزلت إلى درجة قياسية، الحمى لا تفارقني وأتعرق بشدة خصوصاً في الليل. بات تنفسي شاقاً وأقضي ليلي ونهاري مستلقياً. في صباح يوم وأنا اغسل وجهي سعلت بشدة ثم بصقت في إناء جماعي نغسل فيه وجوهنا وأيدينا، وإذا بدم أحمر قان يخرج مع السعال ليدق جرس الإنذار، وكان هذا بمثابة إعلان رسمي عن إصابتي بمرض السل الرئوي.

فزع المراقب وأنصاره خشية العدوى وبدأوا يفكرون الآن بطريقة للتخلص مني ونقلي خارج الزنزانة. بالمقابل كان هناك آخرون يبالغون في تقديم الرعاية والعناية لي ويضيقون على أنفسهم كثيراً في المأكل والمشرب والمنام لأجل توفير الراحة لي التي لا تتوفر لأحد. أصابني نحول تام، إلى أن وصلتُ مرحلة بات فيها خروج البلغم يقتلني. أصبحت على مشارف الموت، وكأنما كنت وإياه على طرفي شباك أحدنا ينظر للآخر بانتظار من منّا يقفز لشرفة الآخر. لم يخفِ بعض السجناء

قلقهم من ذلك، بل إيمانهم بأنه لم يتبق لي إلّا قليل جداً في هذه الدنيا. "فيض الله" الشاب التركماني الذي يكبرني بسنوات قليلة، جلس عند رأسي وصار يحدثني عن الدنيا الفانية، ويقول لي أن الموت حق، ويواسيني بكلمات صبرٍ وتشجيع على تلقيه.

لا أعرف لماذا لم أشعر بأيّ شيء في تلك الوضعية المزرية التي وصل إليها جسدي. لا أقدر أن أزعم أني كنت صبوراً على الأوجاع والآلام وانحطاط قواي البدنية، لأني بصراحة ما كنت أشعر بشيء. كان الأمر بالنسبة لي سيان ويبدو عادياً جداً فما عاد ممكناً لشيء أن يثير فزعي، فقد انقطعت الخيوط المليئة بالقلق، والخوف التي تربطني بالعالم وتشدّني إليه. كنت أعاني ألماً لا يتوقف، إنما أقابله مبتسماً، وأنظر بهدوء إلى أوهام هذا العالم الماثل أمامي. بتّ أعد العالم كله أوهاماً في أوهام وسراباً في سراب. وهذا هو الذي أسداني ذلك الإحساس بالهدوء والسكينة وإلى قبول المرض واحتماله وحتى الاستمتاع بآلامه.

كنت أسمع كلمات المواساة والصبر ولا ألقي لها بالاً ولا أعيرها أي اهتمام؛ فقد كنت أرى أن الخطب لا يستحق كل هذا العناء والتفكير منهم، بل أراهم مهووسين

بأمر ليس بذي بال. خاطر واحد يدور في بالي يواسيني قائلاً: ما هي إلا أيام قلائل وستفنى نهائياً ثم تدرج في عداد المنسيين مثل ملايين قضوا من قبلك، كأنك لم يوجَدوا من قبل؛ ولو جاء ذكرهم فسوف يكون من قبيل الصدفة فقط. فلتكن أمنيتك أن لا ينشغلوا بذكرك إن كنت نبيلاً أو شريراً، ولكن أن يصرفوا اهتمامهم لذكر المبادئ التي تمسكت بها فأوصلتك إلى هنا، والتي من أجلها فنيت، فهي الأجدر بالذكر والبقاء من أي مخلوق وكائن.

دليل هذا الإحباط من الدنيا وعدم الاكتراث لمزيد من التواجد فيها، إنني لم أتوقف عن التدخين حتى في هذه الظروف البائسة، إلّا بعد بلوغي مرحلة متقدمة حينما وصل بي العجز لدرجة تضاءلت فيها قدرتي على سحب الأنفاس للبقاء على قيد الحياة وليس للتدخين، ولم يعد هناك من فسحة للتمتع بلذة الدخان. كنّا ندخن بشراهة من الضجر والملل الذي ملأنا، وللمفارقة المضحكة كنّا نحسب أنفسنا من المدخنين المدمنين، ولم أصحُ شخصياً من هذه الفرضية الخاطئة إلّا بعد سنوات، حين قابلنا الطبيب "منصور" وهو سجين انتدب للعمل في

مستوصف المستشفى وسأل سجيناً كان يشاطرني السكن في الردهة.

- هل تدخن؟

- نعم.

أجابه رفيقي، وكانت نعم كبيرة استرعت انتباه الطبيب فسأله ثانية:

- كم سيجارة تدخن في اليوم؟

فقال له صاحبي:

- ثلاث سجائر باليوم.

- ومن أين لك هذا المال لتنفقه على السجائر؟

- نحن عشرون مدخن تقريباً في الزنزانة نشترك في شرائها، وندخن السجائر الثلاث جميعنا يومياً. كل واحد تصيبه ثلاث أنفاس تقريباً.

ضحك الطبيب مبتسماً بسخرية، وانتبهت وقتها إلى هذا العالم الغريب الذي نعيش فيه، وإلى كم المعتقدات التي نؤمن بها بشدة وهي في الحقيقة أوهامٌ ظاهرة. أن نركب حقائق عالم على عالم آخر لا يمت له بصلة، ونسقط تداعياته عليه بلا وعي فواصل الزمان والمكان والظروف الموضوعية، سوف يدفعنا إلى متاهة لا نهاية لها ويضعنا وسط لغز بلا حل.

كنّا أحياناً ندخن بطريقة فكاهية بحق، إذ حينما تشح السجائر نروح نبحث عن بدائل لها. كنّا نجمع بقايا الشاي الذي يقدم لنا في الصباح ونجففه. كان لدينا صنبور ماء عاطل تم نزعه من أحد الحمامات، لأنه بالأصل لا يوجد ماء في الحمام، ولسنا بحاجة لهذا الصنبور العاطل ولا لغيره حتى إن كان صالحاً. كنّا نضع فضلات الشاي في رأس الصنبور ونحرقه، ثم نبدأ في سحب دخانه من الجهة الأخرى، كأننا ندخن غليوناً. كان طعم الدخان لا يمت لدخان السجائر بشيء، بل كان مرّاً لاذعاً، ومع ذلك كنّا نشعر معه براحة أكثر من تدخين السجائر، لأن مخلفات الشاي كثيرة وكنّا نحظى بأكثر من نَفَسٍ واحد عند محاولة التدخين بهذا الغليون وأيضاً لا يوجد تزاحم عليه كما كان يحصل في تدخين السجائر. جربتها هذه الطريقة، إلا أني بعد ذلك استسخفت الفكرة؛ فامتنعت عن التدخين لسنوات متمادية.

11

لـم يكـن جوعاً وحسـب، بـل كانـت مخمصـة إصـفرت معها الوجوه وهزلت بها الأبدان وتغورت إثرها البطون؛ فأصبحت حياتنا مهددة بنحو جدي. يقدم لنا في الصباح حساء عدس وشاي وقطعة خبز صباحية "صمون" كما نسميه باللهجة العراقية. كل صحن كان مخصصاً لخمسة أشخاص أو أكثر وهو بالكاد يكفي لإشباع شخص واحد، وفي الغداء يقدم لنا رز بمقدار قدح صغير، ومع ذلك لم يكن يصلنا هذا النزر الضئيل والمقدار البخس كل يوم، بل تقريباً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الواحد في أحسـن الأحـوال. كانـت الوجبـة الرئيسـة فـي العشـاء أو الغـداء، عبـارة عـن حسـاء مـن شـيء لا أعـرف كنهـه بالتحديـد. يصـلنا فـي قـدرٍ كبيـر (يسـمى قـزان بمصـطلح السجن) ماء ساخن تطفو عليه بضعة رؤوس بصل وتسبح معه أشياء دقيقة سوداء، لا يُدرى هل هي ديدان أم أشياء تؤكل. منظر القدر بما فيه يبعث على التقزز، ومع ذلك كنّا نأكله بنهم كبير، لأننا كنّا طاوين لحد المسغبة. في

مناسبات قليلة كان يصلنا لحم أو دجاج، مرة في الشهر أو أكثر من ذلك، وفي مرات نادرة جداً حظينا بسمك، وكل ذلك لم يكف لسد الجوع أبداً.

الأواني التي نستلم بها الطعام مضحكة، مثلما هي الطريقة التي يُسلم بها. كان القزان الكبير يصل إلى باب الزنزانة يدفعه واحد من عناصر الخدمات على صناديق بلاستيكية تسهيلاً للحركة ويبدأ بإعطاء كل زنزانة نصيبها. يقدم المراقب صحناً كبيراً من تحت القضبان لتسلم الرز، وبالطبع هذا الصحن الكبير ليس كما تشي به الكلمة، لأنه لم يكن في الحقيقة سوى غطاء لبرميل الماء البلاستيكي.

يبدأ المراقب بعدها بتوزيع الحصص التموينية بواسطة قنينة زيت بلاستيكية (تشبه قناني الماء والكولا حجم لترين) شقت إلى نصفين لتصبح أداة للغرف، ومن ثم يقدم الطعام لكل مجموعة سجناء في صحون معدنية مسطحة. الأقداح التي نشرب بها، لها أشكال غريبة عجائبية منوعة مثل أدوات الأكل ومن الممكن أن تكون عدلت طريقة استعمالها من أي شيء، كأن يكون علبة معدنية أو قعر قنينة زيت، وعلى كل حال لم يكن هناك الكثير من الماء لنشربه.

الماء يصل إلينا عبر خرطوم طويل مرتين في اليوم، إذ

أنه يمر لنصف ساعة على كل زنزانة تتزود به بملء برميل بلاستيكي يشد بإحكام إلى الحائط الذي تتواجد فيه فتحات التهوية. ولأن الساحة الخلفية كانت مكبّاً ضخماً للنفايات فكانت تتوافد إلى هذا البرميل حشرات لا عدّ لها ولا حصر لتفطس فيه، ورغم ذلك لم يكن هلاكها فيه سبباً رادعاً للامتناع عن شرب الماء. كل ما كان يجري، هو إزاحتها قليلاً قبل الشرب وينتهي الموضوع وكأن شيئاً لم يحدث مع إنه كان يحصل في كل لحظة.

كان الماء شحيحاً إلى درجة لا تصدق، وصل في بعض الأوقات إلى أن يكون حصة كل سجين نصف لتر تقريباً، وفي أحسن المرات ثلاثة أرباع اللتر في اليوم والليلة الواحدة. عليه أن يستعملها لكل الأغراض من شرب واستحمام وللشطف بعد قضاء الحاجة ولغسل الملابس وأواني الطعام، ولولا إن المكان كان مظلماً رطباً لا تزوره الشمس بالمطلق لما أمكن لأحد العيش مع هذا العطش المتواصل.

كان يحصل أحياناً أن يصل إلينا الخبز أكثر من المعتاد، لذلك لجأ السجناء إلى جمع الفتات المتبقي منه وتجفيفه في أكياس (جنفاص) بيضاء تشبه الخيش إلّا إنها مصنوعة من خيوط نايلون صناعية، تعلق في أعلى

الزنزانة قريبة إلى السقف، توفر لأيام المجاعة، وما أكثرها. تمر علينا أيام صعبة من نقص فادح في الطعام، إذ يصبح ضئيلاً في مقداره ومتأخراً في وصوله. عندئذ، كنا ننقع الخبز اليابس بالماء لتصييبه طراوة تيسر على الأضراس طحنه، وبعضهم كان يستلذ بأكله يابساً كل بحسب ما يروم ويشتهي، وبالأحرى كل بحسب درجة الجوع التي انتهى إليها. كنت وأنا أكله أحس بطعم الغبار في حلقي، ولكنه لم يوقفني عن جرشه ولا صدني عن تناوله أبداً، لأن الجوع صاحب قلب كبير يتسع لكل أنواع الطعام، لا يحجز أحداً منه، لا جيداً ولا رديئاً، ويشكر بعدها بامتنان مهارة صانعيه ولو كانوا من أسوأ الطباخين.
لا أقدر أن أُصورَ الجوع الذي كنّا نتلوى منه، هل تكفي كلمة مخمصة التي تجيز أكل المحرمات ولو كان ميتة؟ لا أدري، ربما تحتاج المزيد.

بعض السجناء خصوصاً من حديثي السن المراهقين وبعضهم لم يتجاوز الثلاثة عشر ربيعاً، كانوا زائداً عن ألم فراق آبائهم وأمهاتهم بعد أن اختطفوا من أحضانهم، يئنون من لهيب جوعٍ يستعر في أحشائهم ولا يجدون ما يخمدونه به، وحين يجتمع بردٌ صرد وجوعٌ جارف حتى الكبار كانوا يتأوهون من فعلهما البشع. في إحدى الليالي

شوهد أحدهم، وهو شخص من قلة قليلة ممن يستحق المعاشرة الحميمية، ويحظى بالاحترام والمودة من أغلب السجناء، لأنه كان مثقفاً رفيعاً، لكنه كان متواضعاً جداً، وظريفاً يبتكر الطرائف من العدم. جلس منزوياً في تلك الليلة تحت جنح الظلام يبكي، وراحت الظنون إن به إما أمر جلل كان يتكتم عليه، وقد طفح اليوم الكيل به فلم يعد قادراً على مواراته، أو لربما دهمه شوق وحنين ما تملك من ردعه كما كنّا نفعل، إذ كنا نمارس لعبة فقد الذكريات ونفرغ أذهاننا من الماضي ونوصد الأبواب عليها حتى لا يصيبنا الجنون، لإنّ الذّكريات تسبّب المعاناة، سواء كانت ممتعة أم مؤلمة، ولا ألم أشد من تذكر عهود الهناء.

لا بد إن عواطفه التي حبسها مدة طويلة في صدره تتفجر الآن تفجراً لا سبيل إلى كبحه. وإن قلبه الذي ظل مقفلاً عن التعبير عما فيه من عواطف من الخجل، استسلم لحاجته إلى الحب فأسكنها بالدموع، ورضخ رضوخاً نسى معه نفسه. إلا أنه حينما استفهم منه أحدنا عن سبب هذا البكاء المباغت بلا مقدمات، ردّ علينا بجواب مريع في مأساويته.

- البرد والجوع يقتلني. هكذا قال، وعاد منخرطاً في

بكائه المرير.

إذا كانت هذه معاناة الكبار فكم كانت معاناة الصغار؟ لا حاجة للقول إنها كانت أشد، فقد وصل الجوع ببعضهم إلى أن يصنع فطيرة لم يوصِ بها أمهر طباخ. كان أحدهم يأخذ قطعاً من رغيف متيبس ويمسحه بمعجون الأسنان كما لو أنه يدهن الخبز بزبدة أو قشدة، ويتلذذ فرحاً منتشياً بقضمها، هو ومجموعة من رفاقه في حفلة أكل جماعية والبسمة تعلو محياهم، كأنهم يحتفلون بعيد ميلاد صديق لهم. لم يكن يسيراً تجربة هذا النوع من الشطائر لذلك لا أعرف طعمها، لكن أعرف الكثير ممن تذوقها، وأسكت عويل أمعائه الخاوية بها ولم يساوره ندم على ذلك.

هذا ما كان يحصل في مرات كثيرة نتلوى جوعاً في انتظار وجبةً مقرفة من حساء لا طعم له، ونجبر ذائقتنا على التلذذ به برضا وقناعة مع إن الأولى بنّا مجّه وقيئه، لكن لا حيلة لذلك لأن خيار الموت جوعاً هو البديل لو امتنعنا عن قبوله. كنت أكل ليس حباً في الأكل ولا رغبةً في البقاء على قيد الحياة لأجل البقاء، إنما أفعل ذلك لأواصل المقاومة وأتحدى جلادي بمواصلة الحياة، الذي يريد أن يرغمني على الظن بأن لا مكان لي في هذه

الدنيا بهذه الأفكار وبهذا النفس المتمرد، ويجب عليّ أما الخضوع له أو مغادرتها إلى عالم آخر. كانت نافذة خيالاتي تسرح بي بعيداً إلى كتبٍ أدمنت مطالعتها، ومبادئ التزمت بها، وقيم أُشربت بها تجري في عروقي، ومنها نبت لحمي وعظمي، بل كل كينونتي. أسرح مثل خيول برية، أمرح في سهوب روايات ابحرتُ فيها من قبل، وقصائد عشقتها، أعلو هضاب كتابات جادة وألتقط من عشبها. الذاكرة كانت حية ولم تزل فيها بعد طرية كلمات ناظم حكمت وهو يقول في بعض أبيات قصيدة إلى مرشحي السجون كنت متيماً بها قبل اعتقالي.

احرص على تناول حصّتك من الخبز حتى اللقمة الأخيرة.

واحذر من نسيان الضحك ملء الفم.

أنهم يريدون قتلك، فلا تمنحهم الفرصة لفعل ذلك.

منطق سليم تلقفته وعملت به بإخلاص منقطع النظير، كنت أواصل الحياة لأنكد عليهم مسعاهم وأحبط مشروعهم ولأقول لهم، إننا باقون في هذه الدنيا وسوف يبقى صوتنا يطوف في الدنيا وصورنا سوف تظلل الأرض أعلى من السحاب، أما أنتم فسوف ترحلون ولن يبقى صوت لكم ولا صدى، وسوف تختفي عينكم هي والأثر.

أحياناً، تكون الشجاعة في مواصلة العيش ليس خوفاً من الموت، ولكن تحدياً. وبعيداً عن الشجاعة من عدمها، فقد أمرتُ نفسي وقتها بأن أعيش، وأن أكون قاسياً شديد الصرامة تجاه كل ما يغدو ضعيفاً وبالياً فيَّ، مع أني كنت أشعر بأن الصدفة وحدها يمكن أن تنقذني. لم يبق فيّ من الطاقة والقوة سوى شيء مقلق، بائس. لا شيء سوى المرارة ووحدة من كل من عرفت في حياتي السابقة، فلا أحد جنبي. لم يتبق عندي من أمل سوى تمسك بالحياة محاكاة لحظ القطط في البقاء. كم الحياة قاسية إلى الحد الذي تجعل المرء يستهزئ بها وهو في طريقه للموت.

الانتظار يزيد الوجع والألم قسوة، وما يضاعفه أكثر حين يكون الهدف المنشود والأمر المبتغى بمرأى العين تحسه الجوارح وتهفو إليه الجوانح لشدة قربه، لكنه ينأى بعيداً في غور عميق، ولا يحول عنه ويحجز الإمساك به ويمنع الوصول إليه إلّا وهمٌ خادع. أمرٌ يبعث على السأم والملل أن تجلس ساعات طوالاً ترنو بعينيك إلى طعام ملقى أمامك، وأمعاؤك أودى بها الخواء إلى العجز حتى عن التلوي ألماً. تجد يدك مغلولة لا تجرأ على كسر رغيف خبز أو خطف رشفة من حساء حسنته الوحيدة التي تحفز على احتسائه إنه ساخن. نراه يبرد ويفقد أحلى

ما فيه، وسبب ذلك كله، إن التلفاز يقدم خطاباً للقائد الهمام، أو يعرض برنامجاً يزور فيه قاطعاً عسكرياً أو يقلد أوسمة لضباط. يستغرق عرض البرنامج أحياناً أكثر من أربع ساعات ونحن مسمرون إلى أماكننا. لا يسمح لنا بالحديث ولا الحركة ولا الأكل والشرب ولا حتى الذهاب إلى المرحاض لقضاء الحاجة، وإن اضطررنا إلى ذلك. نظل ملتصقين إلى أماكننا، نجلس كأننا تماثيل شمع. ومن يرتكب أيّاً من هذه المحظورات، يعرض نفسه إلى عقاب كبير، لأن هذا يعني تجاوز على ذات القائد وجزاء من يفعل ذلك الموت بحسب القانون، فكيف بمن هو أصلاً متهم بالخيانة، ومعاداة الوطن، والحزب القائد، والثورة.

12

شاب شجاع يدعى حامد سعدون أسد كان طالباً في الكلية العسكرية حين اعتقاله استطاع أن يدبر لي بعض المضادات الحيوية ساعدت على كبح تدهور صحتي قليلاً، وقام بفعل آخر فيه جرأة كبيرة. حينما يؤتى بكيس الخبز لتؤخذ الحصة بحسب عدد السجناء، كان يستغفل عناصر الخدمات ووكلاء الأمن مخاطراً فيأخذ بضع قطع إضافية من الحصة المقررة ويدخرها لي؛ ليمنحني فرصة أكبر لمقاومة المرض الذي واصل تقدمه وأحرز انتصارات واضحة في جسدي. هذا الشاب فعل غير هذا أشياء كثيرة لإبقائي حياً أعانتني على تجاوز الأزمة، وطوقني بجميل ليس بإمكاني تجاوزه العمر كله. إضافة لشجاعته فقد كان متواضعاً خجولاً ترى على سحنات وجهه حياءً كأنه خَفْر العذارى إذا ما شكرته على ذلك، بل يتوسل بيّ ألَّا أفعل ذلك. لم تكن تربطني به أي علاقة خاصة من قبل، بل حركه دافع إنساني نبيل. كان مستعداً على الدوام لأن يقدم التضحية لإنقاذ حياة أي إنسان

مظلوم يصادفه. هذا القلب الطاهر ذو الأخلاق الرفيعة كان ملقى في غياهب السجون، لأنه تصدى لنظام يحمل كافة الرذائل والمفاسد ولا يعادي شيئاً أكثر من النبل وعلو الأخلاق.

كل الجهود التي بذلها صديقي لأجلي لم تحل من تراجع صحتي، مما أشعل مخاوف جدية من انتقال العدوى إلى الآخرين. الخوف كان واضحاً على وجوه بعض السجناء ممن لا علاقة لهم لا بالسياسة، ولا بالمعارضة، ولا الثقافة، ولا أي شيء يمنحهم لقب سجين سياسي من خصال التضحية. دب الرعب بين هؤلاء وانضموا لجوقة المراقب الذي بذل جهداً كبيراً عند الخدمات لإقناع أفراد الأمن بضرورة إخراجي من الزنزانة ونقلي إلى أخرى مخصصة للحجر الصحي يودع فيها المصابين بمرض التدرن الرئوي، وتكللت مساعيه بالنجاح بعد حين ليس بالطويل.

قبيل نقلي إلى زنزانة الحجر الصحي ورغم شدة مرضي، إلّا إني لم أتوقف عن روح التمرد والاحتجاج. في كل زنزانة هناك شخص يسمى مسؤول الماء، له من الأهمية والمقام الكثير، لأنه يمسك بالماء عصب الحياة، وفي زنزانة مثل التي كنت فيها مع وجود مراقب يعد

واحداً من أكثر المتعاونين مع الأمن خسة وجبناً ونذالة، فلا بد أن يكون مسؤول الماء متناغماً معه. وكان فعلاً كذلك وإن لم يشِ بأحد إلى الأمن يوماً، إلّا إنه كان انتهازياً رخيصاً. بسبب شحة الماء، فمن المفترض أن يتم التعامل معه بدقة ونحظى بحصصٍ متساوية، إلّا إنه كان يرشو المراقب ليسرق لنفسه حصةٍ زائدة. حينما يطلب عناصر الخدمات سحب خرطوم الماء من زنزانتا إلى زنزانة أخرى بعد انتهاء الوقت المخصص لنا، يقوم بوضع الخرطوم في إناء خاص به مستغلاً الوقت الذي يستغرقه سحب الخرطوم، ويقوم بإخفائه. واجهت سرقته وأحرجته باعتراض علني، مع إن ما يؤخذ كان يتراوح بين قدحين إلى ثلاثة لا أكثر. مع ذلك فقد كانت بنظري مهمة جداً، لإنه فاسد يستغل منصبه لصالحه الخاص بالتلاعب بثروة عامة؛ وهذا أمراً أرى أنه لا يحتمل السكوت عليه.

الغريب إني اكتشفت خواءه وجبنه بحركة معارضة صغيرة، كان رعديداً تهزه كلمة، ويفزعه موقف تصدٍ واحد. مثله مثل كل متظاهر بالجبروت من الطغاة، يغدو متعجرفاً مزهواً بنفسه، إذا أحس بأنك في حاجة إليه ويصعب عليك الاستغناء عنه، لكنهم يفزعون من كلمة

حق يلقيها أمرؤ أعزل غير هياب بسلطتهم الجوفاء. ما يجعل الطغاة كباراً مرهوبين هو وهم الخوف الذي يملأ نفوس الناس وليس أي شيء آخر. سعى هو الآخر مع تلك الجوقة الجوفاء جاهداً للتخلص من وجودي في الزنزانة، الذي أرّقه كثيراً إلى حد إنه بعد عدة سنوات حين جمعتنا المصادفات مرة أخرى في زنزانة جديدة، بمجرد دخولي إليها، جاء اليّ مباشرة وهمس في اذني طالباً بودٍ واستعطاف ألَّا أثير عليه المشاكل من جديد وألّا أحاول إزاحته من منصبه. حاول إرضائي بمبالغةٍ زائدة في الاحترام؛ ليثبت من هذا الموقف بأن المتجبرين ما هم إلّا جبناء ألبسهم خوف الناس لباس القوة والجبروت، الخيار الوحيد أمامنا ألا نهاب مواجهتهم ولا نتردد في ذلك، والعجب كل العجب من الخشية التي تعتمر قلوب كثيرين من وهم القوة التي يصنعها الطغاة والمستكبرون لأنفسهم، والأعجب أنهم يخضعون لكذبتها ويظنوها حقيقة راسخة لا يمكن الفكاك من سطوتها.

قد يقال ليس على المرء أن يكون سوداوي المزاج، وإن الحديث عن هذين الكوبين من الماء به مبالغة كبيرة، وقد جعل من الحبة قبة ومن النملة فيلًا، وصيّر أمراً هيناً

معضلة عويصة، وأعطاها عناوين كبيرة من استغلال منصب وتلاعب بالثروة العامة إلى آخره من الشعارات الكبيرة. من لا يقبل هذا أدعوه للحضور هناك، وسوف أكون مستعداً للمراهنة بدلاً عنه بأي رهان يقترحه إن كان بالفعل يقدر على التمييز بين الحبة والقبة، وهل كان بوسعه أن يجد بينهما فرقاً؟ كانا متشابهين كلَّ الشّبه. أستطيع أن اؤكد أن الأمر كان يستحق حتى أكثر مما فعلت. كان التصدي مبررٌ جداً، وكذلك الحديث عن العناوين الضخمة، فمن يظهر فحشه في الجرائم الكبرى ليس أمر مستجد قد طرأ عليه، بل هو تاريخ طويل من حوادث صغيرة تراكمت، تغافلت عنها عيون الناس، فتعاظم عددها وكبر خطرها حينما انفجرت أخيراً. كان من السهل جداً وأدها أو إصلاحها من قبل، فلا معلول بلا علة، وتراكم الكم يحدث تغييراً في الكيف، والمبادئ لا تتجزأ والقيم لا تتغير. هذان القدحان الضئيلان تُشترى بهما حياة إنسان في ذاك المكان المنسي، لأن الماء كان نفيساً أغلى من الياقوت والزمرد، وكان كل سجين يحرص أن يتصرف به بعناية واقتصاد مبالغ به.

في ليلة نهض شابٌ من رقدته وقد مر به طائفٌ ذكّره بفحولته، وبعيد مغادرته اكتشف أن ما خرج منه قد أدخله

في ورطة، إذ لوث ملابسه وبطانية يشاركه آخرون في النوم عليها. شحة الماء تمنعه من غسل ثيابه والبطانية بالكامل، فكان عليه وفقاً لذلك أن يحدد الموضع ليحاول تنظيفه لاحقاً. خاطر بالنهوض من مكانه ليلاً، مع إنه أمرٌ محظورٌ وجريمة كبرى. جاء بقطعة صابون ورسم على المواضع التي يريد غسلها دوائر صغيرة كي لا يهدر الماء، ولسوء حظه لمحه أحد عناصر الخدمات فوشى به إلى الأمن. في مساء اليوم التالي دخل ضابط الأمن وزبانيته، ليعذبوه تعذيباً أسطورياً بسبب رسمه هذه الدوائر الصغيرة، متهماً إيّاه بممارسة السحر والشعوذة وإنه دجال إلى آخره من التهم السخيفة التي لا أصل لها ولا أساس. جرى تعذيبه لأجل أقداح ماء أراد أن يوفرها وأصابته نتيجة ذلك صدمة عجز عن تحمل عبئها الثقيل فانهار تحت الضغط العنيف وفقد هذا الشاب عقله. لم يطرأ عليه تغيير، ولا تحسنت حالته بعد تلك الحادثة المشؤومة، وصار يعد معتوهاً. كل عقل له حد ومقدرة على تحمل الصدمات فإذا زاد الحد تحطمت هذه المقدرة، وهل يستطيع عقل أن يتحمل كل هذا العذاب لأجل قدح ماء أراد أن يوفره؟ والآن ألا تستحق ثورتي على مسؤول الماء الاندلاع؟ القصص كثيرة، ولكن قصة

واحدة تفي بالمطلوب؛ فنعيب غراب واحد من كل خربة أكثر من كاف.

13

كل يوم يحمل قصة ألم جديدة، وأنت ترى شخصاً يتعرض للضرب والأذى لسبب لا يصدق أنه يعد ذنباً حتى في أخس الشرائع.

إثر هذه المشاهد كانت تتداعى أمام ناضري أيام التحقيق المريعة في ذكرى أليمة تستدعي الرعب إلى قلبي، ولكنها مع ذلك كانت تبدو أفضل من الحاضر رغم قسوتها. كنت أجلس بعيداً في آخر الزنزانة أتدرع بوهم بعد المسافة اتقاء شر الأمن. انظر إليهم وهم يعاقبون ولا أكاد أصدق إني سوف أنجو من الضرب مهما حاولت أن أكون بعيداً متوارياً عن الأنظار. إنه أمر لابد أن يحصل، لأنه وبكل بساطة لا يوجد منطق لتجنبه. آه يا إلهي، ماذا سيكون مصيري في دائرة القسوة هذه التي أعيش ضمنها، وأي مستقبل ينتظرني، لا أستطيع حتى تخيل ماذا سيحدث لي؟

في يوم آخر، كان يوم عيد الأضحية، جاءت عناصر الأمن صباحاً مع وجبة الفطور، وأخرجوا سجيناً من

زنزانته لينهالوا عليه بالضرب. كان يتصيدون أيام الأعياد لينغصوا فيها أي سعادة أو فرح يطرأ علينا. كان يركض نصف عارٍ في الممر أمام مرأى الجميع، والهراوات تنهال عليه من كل صوب وحدب. لا يعرف أين يختبئ منها، ولا إلى ملجأ يستجير به وقاية من شر أصحابها. استحال جسده الأسمر إلى احمر قانٍ، وقد اختلطت دماؤه بجلده الأحمر من أثر الصفعات والركلات والهراوات التي انهالت عليه. لم يعرف لا هو ولا غيره الذنب الذي ارتكبه ليتلقى كل هذا العذاب في صبيحة يوم العيد، إلا أنه كان يتحلى برباطة جأش عظيمة. من خلال معاشرتي له علمت أنه قد وطن نفسه على مبدأ بأن هذا المكان جحيم مفتوح على المصائب، وإن المنتظر منها من الغزارة والفداحة بحيث تبدو معها أي بلوى تصيبه مهما عظم شأنها، حدثاً بسيطاً وتافهاً من جملة ما يمكن أن ينتابه مستقبلاً. بالفعل كان هذا الواقع ويلزمنا للتعامل معه أن ندرك أنه ما دُمنا فيه على قيد الحياة فإن الآلام والعذابات سوف تسلّط علينا؛ لذا من الصواب أن نستحضر النتائج الحزينة لا المفرحة. بذلك سوف ننجح في وضع حد لأثر الصدمات والمفاجآت غير المحبوبة وتداعياتها. كان مخلصاً لقناعته ومؤمناً بهذا المبدأ بشدة

مما أعانه على تحمل النكبات بالتعامل معها على أنها مفردة يومية عادية، فجعلت منه ضحية لا تُقهر، لا يفقد شجاعته ولا ظرفه بعد أي معاناة، بل يزيل بالفكاهة أي حرج نقع فيه ويبدد أي ارتباك يصيبنا. بعد نصف ساعة تقريباً من جولات التعذيب المتواصل كان يسأل الضابطَ فيها بإلحاح:

- سيدي هلا قلت لي ماذا فعلت حتى أنال هذا العقاب في صبيحة يوم العيد؟

- لإنك حاقد على الحزب والثورة.

- ألهذا وحسب، إذن عليّ الآن أن أقدم لك الشكر سيدي، فقد هدأت روعي.

- ماذا؟ سأله وهو ينظر إليه باستغراب وحيرة ممزوجة بالدهشة

- كنت خائفاً من أن أكون قد ارتكبت فعلاً محظوراً من غير أن أشعر، لكن الحمد لله تبين أن القضية سهلة جداً.

- كيف هي سهلة وفوق ذلك تقول جداً؟

- سيدي لأن السجناء هنا كلهم حاقدون وإلا لما كانوا هنا.

رغم دموية المشهد وشفقتنا عليه مما لقي من الأذى،

إلّا أنه أضحك الجميع وأخرس الجلاد إلى حد أجبره ليس أن يتوقف عن ضربه وحسب، بل الانسحاب من باحة السجن بعد أن شعر بالموقف السخيف الذي وضع فيه.

لأسباب لا يجدر أن تسمى أسباباً، لأنها لم تكن سوى ذرائع واهية للانتقام، وقعت حوادث تعذيب كثيرة، بعضها كان من الوحشية والسادية بحيث لا يمكن لأحد أن يصدق إن بشراً قادر على فعلها. كثير ما أفضى إلى موت الضحايا إما مباشرة بعد الضرب أو بسبب عطل أصاب أحد الأعضاء الحيوية يؤدي إلى الوفاة لاحقاً. واحد من بين التعساء الذين نزلت بهم المصائب كُبّل ومُدّد جسده على منضدة ورأسه يخرج عنها، وقد عُلّقَت قنينتا غاز موصولتان بسلسلة حديدية إلى طرفي عنقه كأنه مصلوب على لوح خشب وانهالوا عليه بالضرب. لم يكن يقوى على الحركة فيما الضربات تنزل عليه تسحق عظامه وتفتت جلده الطري لينزف من كل موضع، وعنقه كاد يكسر من ثقل ما تدلى منه. حُمِلَ شبه مغشي عليه إلى زنزانته وكانت هذه آخر مرة يُرى فيها سليماً. قسا بعدها عليه المرض، فغدا شاحب الوجه غائر العينين لا تفارقه الحمى. حُرِثَ بأنواع الشقاء والمحن والأحزان حرثاً،

بعد ان أنهكه المرض؛ فتضاءل حجمه إلى حد صار يهتزّ كالسعفة كلما دهمته نوبة سعال، ثم أضحى شبحاً ليختفي إلى الأبد.

آخرون كانوا يعاقبون بأن يطلب منهم ارتقاء قضبان الزنزانة إلى الأعلى ثم تقيد أيديهم وأرجلهم عليها، ويبقون معلقين وقوفاً أياماً على ذلك الحال. أما ما يعرف بالفلقة فكان أمراً شائعاً كثير الاستعمال، وفي مرات كثيرة كانوا يبالغون في إذلال السجناء فيطلب منهم التقلب على ظهورهم ورؤوسهم في الممر بين الزنزانات، ومن يتردد أو يمتنع أو حتى يتوقف من التعب يلهبون ظهره بالسياط.

كان الموت يدور بين الزنزانات يبحث عمن يستعجل الرحيل، كأنه سربوس يعوي في العالم السفلي ينهش الأجساد بأنيابه ويزرع الخوف بنظراته من عينيه اللتين تشعان الشر. رفاقنا واحداً تلو الآخر يتلاشون، بعضهم يعلن رحيله قبل المغادرة، فيما يتلاشى بعضهم الآخر فجأة بدون سابق إنذار. كانوا يتهاوون بسرعة خاطفة مثل النيازك وهي تحترق حينما تخترق حزام النار الذي يحيط بالأرض. كل واحد منهم كان قصة فريدة ويحمل طبعاً مميزاً لا يمكن استرجاعه مرة أخرى، ولن يجدي أبداً البحث عن بديل له. لحظات غاية في الألم حينما

نفقدهم، كأنه بتر عضو من أجسادنا بسكين. نبكي حينما يحين وقت أحدهم، لأنهم يرحلون دون شكوى، ونتذكر ساعتها أننا عانينا فوق العادة، وأن الحياة مُرّة. رغم ذلك فقد كنّا على يقين بأن الرب سوف يرحمنا إذا ما ذهبنا إليه، لأن الله يجدر به أن يحب المستضعفين ولأنه رحيم كما آمنا بذلك منذ صغرنا فلا يعقل أنه سوف يكسر خاطرنا مرتين. الأمر الثابت أنه رغم كل الأحزان فقد كنّا على اطمئنان، بأن هذا الحزن لن يمتد إلى الأبد، فهنالك موت ينتظرنا سوف يخلصنا من دركة الأحزان هذه.

في زنزانة مجاورة بلغ المرض مداه بأحدهم، وبعد شرح مسهب لعناصر الأمن إن الرجل أضحى من الضعف بحال لم يعد قادراً معه أن يقلب جسده، ولابد من نومه مضطجعاً طيلة الوقت على ظهره، والزنزانة لا تكفي أن ينام فيها أحد على ظهره. سمح أفراد الأمن أخيراً بأن يسجى إلى جانبها في الممر، كي يقدم له رفاقه العناية اللازمة من أكل وشرب عبر القضبان. لم يرهق رفاقه طويلاً فقد غادر صباح اليوم التالي ليسحب ببطانية كان ينام عليها وتلاشى نجم آخر من سمائنا. وعقب ذلك عدنا إلى حياتنا اليومية بروتينها المقرف ننتظر حدثاً جديداً مفجعاً آخر.

لم يتوقف أي شيء، سارت الأمور كلها كما هي، لأن الموت زائرٌ مقيم لا يثير استغراباً إذا ما خطف أحدنا إلى عالمه الفسيح. الأحداث المفجعة والمحزنة كانت وقائع تافهة وتعد لا شيء بنظر الأمن، وفيما كان صاحبنا تلفه بطانية ويخرج من الباب عينه الذي دخل منه، حصلت بعض الهمهمة أثناء توزيع وجبة الطعام الصباحية، فقال بصوت عال أحد عناصر الخدمات مؤنباً السجناء.

- ما بكم اليوم؟ أسمعتم شيئاً غريباً، أم حدث شيء خارج المألوف؟

همس حامد سعدون في أذني.

- لا، لم يحدث أي شيء سوى أن إنساناً قد مات.

14

بعد مناشدات كثيرة من مراقب الزنزانة للخلاص مني خشية العدوى من مرض السل الذي أنهكني، وإثر نصائح وجهت لي من أصدقاء مخلصين وجدت أنه من الأفضل أن أختار الذهاب طوعاً إلى زنزانة مخصصة حصراً لمرضى التدرن لعلي أحصل على علاج فيها. أخرجت بمعية آخَرَينْ في إحدى الليالي، وقد وضعت على رؤوسنا مناشف لمنع أي أحد من التعرف علينا ونحن نسير في الممر ذاته، الذي دخلنا منه أول يوم عند وصولنا السجن، بعد أن أخلي من كل مخلوق سوانا. على جانبي الممر توجد أقسام ينزل فيها سجناء ذو قضايا لها علاقة بالسياسة أو الأمن الخارجي إلّا انهم غالباً غير متهمين بالانضمام إلى تنظيمات المعارضة. كانوا يحظون بزيارة من أهاليهم في كل شهر مرة واحدة، ولديهم حرية أكبر بكثير منّا. بإمكانهم التمشي في الممرات وفي ساحة كبيرة بحجم ملعب كرة قدم، يتعرضون للشمس يومياً ويطبخون أكلهم بأنفسهم. كل واحد منهم له سرير خاص

أو مكان خاص على الأقل. أحياناً تكون الأسرة متعددة الطوابق، وربما في فترات اكتظاظ السجن قد لا يجد بعضهم مكاناً ينام فيه، لكن ليس بالطريقة التي كنّا نعاني منها، فهم في حال بالنسبة لنا كان يعد نعيماً، مع ذلك لا يعني هذا أنهم كانوا مرفهين فعلاً، إنما من ضُرب بالموت يرضَ بالعمى. كان التواصل معهم مستحيلاً إلّا إنهم كانوا يعرفون بوجودنا الإجمالي وكانت تحاك حول أوضاعنا قصص مرعبة تزيد من خشيتهم من الالتحاق بنا، لذا لم يجرؤ أحد منهم على ذكرنا ولو همساً.

في يوم اصبت بمغص كلوي حاد وكنت مضافاً إلى الألم الفظيع أتقيأ سائلاً أصفر كأني أتقيأ أحشائي. في البداية كانت هناك شكوك لدى طبيب السجن بأني اعاني من التهاب الزائدة الدودية؛ فنصح بنقلي إلى مستشفى السجن خشية انفجارها. كان يرافقني إلى المستشفى حارس يعمل لدى وزارة الشؤون الاجتماعية لم يسبق له أن رأى السجن المغلق. إلا أنه أخذ يحدثني عنه بلغة الخبير العليم، وراح يروي لي قصصاً مرعبة عن الظلام والخفافيش التي تعيش فيه معنا. قلت له إني من السجن المغلق، ولم يسبق أن صادفت أي من هذا الكلام، فلم يقبل دعواي مستهجناً نفي لما يقول. أصر على روايته،

ولم يزحزح تكذيبي لكثير مما قاله اعتقاده الراسخ. كان مؤمناً بكل حرف يقوله كإيمان العجائز. كان مشبعاً بالخوف أكثر من محاولة ادراك الحقيقة.

حينما كان عناصر الأمن يريدون أن يدخلوا إلى أقسامنا كانوا يغلقون جميع أبواب الزنزانات التي يعيش فيها هؤلاء السجناء الذين كنّا نسميهم بسجناء الأقسام المفتوحة قبال تسميتنا، حيث كنا نسمى بسجناء الأقسام المغلقة، والتعبير المختصر الشائع هو المفتوحة والمغلقة. إذا نوى الأمن إدخال شيء إلى أقسامنا يغلق السجن كله، وتمنع الحركة في الممر بالتمام بعد إخلائه بالكامل من أي فرد، حتى لو كان من حرس السجن، إذ لم يكن يسمح لأحد بدخول أقسامنا أو رؤيتنا إلّا لأربعة أشخاص من الأمن مصرح لهم بصفة شخصية ويستبدلون في فترات متباعدة.

في أيام الزيارة المخصصة لسجناء الأقسام المفتوحة كان تمنع علينا الحركة ويحظر علينا الوقوف، ونجبر إما على النوم أو الجلوس، ونؤمر أثناء ذلك بلزوم الصمت المطبق لمدة تتراوح بين أربع إلى ست ساعات حتى لا تظهر أي علامة تدل على وجودنا للزوار القادمين من خارج السجن. المنكوبون بفقد أبنائهم كانوا يأتون

للبحث عنهم بسؤال سجناء الأقسام المفتوحة لعل أحدهم يعرف مصيرهم، لكن لا يحظون بجواب، لأن الخوف من عقاب عناصر الأمن كان رهيباً أكثر من العقاب نفسه. لم يكن الرجال يفعلون ذلك مع إنهم فقدوا أعز مخلوق لديهم خشية إثارة الشبهات، بل يوكلون الأمر غالباً إلى النساء. والدتي فعلت ذلك أيضاً وحاولت معرفة مصيري. ولأننا كنّا مثل شجرة آدم، أي شخص يلمسها يحظى بالشقاء الأبدي، كان سجناء الأقسام المفتوحة يتهربون من الإجابة في أكثر الأحيان، مع إنهم كانوا في السجن وليس وفي الجنة، فممَ كانوا يخشون لا أدري؟ ليست غايتي أن أحكم عليهم، أو أن اتهمهم بالأنانية، بل لعل بينهم من كان يحمل الصفاء والشجاعة ولهم من النبل ما ليس في قلوب الأبطال. التعود الطويل على الخضوع، والاستكانة إلى غريزة البقاء، والرضوخ لمعاناة مستدامة من القلق والخوف والاضطهاد غلبهم على أمرهم، ولم يعد بمقدورهم التفكير بتغيير واقعهم، فلا شيء أصعب من التحرر من فكرة ثابتة.

زميلي في الجامعة فاضل هلال راضي، سألته والدتي بالمصادفة، ولم تكن تعلم إنه يعرفني شخصياً؛ فقال لها

بـالغمز والإشـارة المسـتترة إنـي أقبـع خلـف إحـدى هـذه الأبـواب، فرجعـت بصـمت تحمـل البشـرى ببقـائي حيـاً، وواصـلت الانتظـار أمـلاً فـي أن ترانـي مـرة أخـرى. والـدة أخـرى نفضـت غبـار الصـمت وارتـدت لبـاس الجـرأة والتحـدي، حـين أفضـى لهـا بالسـر سـجين انسـل مسـرعاً بعيداً عنها مختفياً بين الحشود، بأن ابنها يختفي وراء هـذه الباب. وقفت أمام الباب تصرخ باسم ابنها بصوت عال وصل لكل السجناء، والى ابنها العاجز عن الإجابة. أزعج أفراد الأمن صراخها فحاولوا إقناعها عبثاً بأنها متوهمة، وأن لا أحد يوجد خلف الباب. أبت تصديقهم وعرفت مكـرهم فـزاد احتجاجهـا؛ فراحـت تطـرق البـاب المصـفح بإصـرار وتنـادي ابنهـا المخفـي. انتزعهـا الأمـن بـالقوة، فأخذت تصرخ بصوت خرق البوابات المدرعة:

- عفية ابني السبع، حكومة دبابات وطيارات وجيش وشرطة كلها خايفة منك وضامتك عليّ، عفية ابني السبع.

في هذا الممر الذي شهد قتل سجناء بتعذيب وحشـي، وسحل جثث آخرين بعد أن قضـوا مرضـاً وجوعـاً، سرت تلك الليلة أمشي وئيداً وصاحبيَّ. نهرنا أحد رجال الأمـن يستعجلنا الخطى، لأن المشـي كـان عندنا مهمـة لا أعسـر منهـا، فقـد كنّـا نبـذل قصـارى جهـدنا للبقـاء واقفـين علـى

أقـدامنا، وألَّا نهـوي إلـى الأرض، فكيـف بالسـير عليهـا.
فقال له صاحبه:

- اتركهم، كلها أسبوعين ثلاثة ونخلص منهم للأبد.

كـان أمراً بيناً إننا في الرمق الأخير، ولـم يبـقَ لنا مـن رحلة هذه الدنيا إلّا صبابة كأس بلغ حد الثمالة.

15

وصلنا إلى آخر الممر حيث فتحت باب جانبية تؤدي إلى غرفة واسعة خاوية، ومنها فتحت باب أخرى قادتنا إلى ممرٍ قصيرٍ شديد العتمة على جانبه الأيسر ثلاث زنزانات تكاد تكون مربعة بطول ضلع يقارب الأربعة أمتار، وعلى الجهة اليمنى خمس أخرى صغيرة ثلاث منها بعرض متر ونصف تقريباً وأكثر من مترين بقليل طولاً تسمى بالمحاجر، وواحدة على شكل حرف (L) الإنجليزي كأنها مخبأ، لا يوجد فيها أي فتحة للتهوية أو الضوء، وأخرى متميزة عن نظيراتها بأبعادها الخاصة مترين في ثلاثة أمتار. صار نصيبي أن أودع في واحدة من تلك الزنزانات الكبيرة بسبب وضعي الصحي المتدهور.

المكان مشبع برائحة مرض ثقيلة ونتانة ورطوبة، ومظلم أكثر من الأقسام الأخرى التي عشت فيها، إلا إن أبواب زنزاناته مفتوحة دائماً، وهذا أمر لم يكن مألوفاً، إذ يمكن هنا أن يتحرك المرء ويتواصل مع الآخرين. الأكثر أهمية في هذا المكان من أي شيء آخر، إنه يعد آمناً من

الوشاة والخونة فلا وصاية لهم هنا ولا سلطة، وأمن الجميع مكرهم، مما سمح بتداول الأحاديث السرية بحرية.

لكل زنزانة أسم خاص حصلت عليه من السجناء على سبيل المزاح والطرفة التي لم تعدم عندهم أبداً حتى في أشد الظروف قساوة. زنزانتي الأولى في المحجر كانت تسمى (عباد الرحمن)، لأن سكانها كانوا مرضى جداً ويمشون بتؤدة بالغة بسبب وضعهم الصحي الحرج، بل إن بعضهم فارق الحياة لشدة مرضه. اقتبس أحد الظرفاء من آية قرآنية تقول (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وصفاً مقارباً لطريقة سيرهم البطيئة؛ فتلقف الآخرون الفكرة المضحكة، وأصبحت تسمية شائعة تطلق على هذه الزنزانة.

الزنزانة الوسطى تسمى بوليفيا ليس لأن فيها أحراش، ولا لأن قطنتها من أمريكا اللاتينية، بل لأنها كانت تشهد تغييراً في موقع المراقب بصورة سريعة، بحيث كانت تنام على أسم مراقب وتصحو على آخر بحركة مفاجئة غير مفهومة. في وقتها كانت بوليفيا تشهد موجة انقلابات كثيرة فأطلق عليها هذا الاسم لتشابه الأحوال بينهما.

الثالثة سميت لبنان، لأن الصيف في السجن حارٌ جداً

أكثر من العادة لانعدام التهوية، ولخلوه من أي وسيلة تبريد، إلّا هذه الزنزانة فإنها تقع قرب ممر فيه مبردة هواء كبيرة مما أتاح لها التمتع بنسيم بارد يتسلل إليها من تلك المبردة؛ لذا عدت منتجعاً بارداً ذا جو معتدل يصلح أن يكون مصيفاً كما كان يفعل العراقيون ممن يريد السياحة بزيارة ربوع لبنان ومصائفها في موسم العطلة الصيفية. الزنزانات الصغيرة كانت محاجر انفرادية ليس لها تميّز، لذا لم تحظ بأسماء خاصة، إلّا الزنزانة المخبأ، الخالية من الضوء وفتحة التهوية سميت (الكهف) لأنها تختلف في كل شيء حتى أنها بلا قضبان، مقدمتها باب حديدي يشبه باب مخزن أو هو كذلك بالفعل.

المكان كله يسمى "المحجر" اشتقاقاً من كلمة الحجر الصحي، وكان متميزاً جداً، ليس لأن سكانه مرضى بالسل وحسب، بل لأنه كان آمناً من مراقبة رجال الأمن. كانوا يخشون العدوى فيتجنبون الدخول إليه أو التقرب من نزلائه. وهذه نقطة ضعف حرص السجناء على تعزيزها عند كل عنصر أمني يحاول الدخول إليه. في الحقيقة كان المكان مقرفاً برائحته، لكننا تشبعنا بها ولم نعد نميزها، وما أقبح التأقلم مع السوء والقبح. مرة حاول رجل أمن أن يبدي أمام رفاقه شجاعة وجسارة فحاول

اقتحام المكان. وما أن توغل لمسافة مترين أو ثلاثة، حتى ارتد راكضاً إلى الباب وهو يتقيأ مستفرغاً كل ما في معدته، إذ لم يطق ولو لثواني قليلة العفونة التي نقطن فيها ليل نهار. كان الحادث مبعث سرور لنا، إذ به نلنا مزيداً من الحصانة والأمان، خصوصاً إن الحادثة قد جرت على مرأى ومسمع من نظرائه الذين بالكاد أمسكوا أنفسهم عن التقيؤ، وهم يقفلون باب القسم بسرعة ويهرولون هاربين من جحيمه.

هذا الأمان النسبي جعل سجناء عديدون يخاطرون بالوصول إليه مدعين الإصابة بمرض التدرن، تخلصاً من وشاية الخونة ومراقبة رجال الأمن ومن التعذيب النمطي شبه اليومي، الذي كان مستمراً في الأقسام الأخرى، وبالفعل نجح أكثر من واحد بالوصول بهذه الحيلة.

وجود رواق مفتوح على مدار الساعة سمح بالنوم فيه مما خفف شدة الزحام في الزنزانات، كما إن الأبواب المفتوحة تعني حرية لا بأس بها من الحركة مما سمح بالمشي نهاراً في هذا الممر القصير. أما عدد السجناء فيه فكان يعد جيداً قياساً إلى الأقسام الأخرى، على الرغم من إن عددنا بلغ مائة وثمانية وستين شخصاً، في حقيقة الأمر كان مكاناً مكتظاً جداً خصوصاً مع وجود كثير من

المرضى فيه إلّا انه ورغم كل ذلك يعد أفضل من الأقسام الأخرى.

مرض التدرن مستوطنٌ بشكلٍ مزمنٍ ولم يكن يصيب الرئة فقط، إنما توزعت الإصابات على أجزاء أخرى من أجساد السجناء، ولا أعرف ماذا تسمى حالتهم من الناحية الطبية، إنما بحسب الشائع وقتها بيننا إن جميع هذه الحالات تندرج تحت أسم الـ(TB) وهو مختصر للفظ الإنجليزي Tuberculosis. بعض كان يشكو من إصابة في الرقبة وآخر في العظام وإصابات أخرى كثيرة مخيفة مظهرها الخارجي مرعب، إلا أن خطورتها كانت أكثر من قبح ظاهرها فقد دفعت قسماً لأن يلازم فراشه لفترة طويلة لا يقوى على مغادرته إلا لملاقاة حتفه. الدواء شحيح ولا يمكن أن يكون علاجاً حقيقياً لمثل هذا المرض، إذ لم يكن يعدو عن كبسولات من مضادٍ حيوي وحبة فيتامين وقرص كأنه قطعة طباشير كنت أتجرعه مكرهاً. كمية الدواء لم تكن تكفي كل المرضى، فكان من اللازم أن يقسم على المرضى بطريقة عادلة وليس بالتساوي.

كان لدينا أيضاً مراقبون وخدمات، لأنه عملٌ تنظيمي بالأصل لتسيير الأمور وليس إجراءً أمنياً. إنما كانوا لا

يقدمون معلومات للأمن كما في الأقسام الأخرى، بل كانوا بالعكس من ذلك تماماً، فهم يعملون لصالح إخوانهم ونظم أمورهم بما ييسر عليهم مصاعب السجن الجمة؛ لذا وضعوا نظاماً عادلاً حكيماً لتوزيع الأدوية. يمنح المريض الأشد ضرراً دواءً منتظماً حتى يتجاوز مرحلة الخطر، وعند تحسن صحته تُقَلّصْ الحصة تدريجياً حتى يتجاوز مرحلة المرض ويصبح وضعه مماثلاً لحالة السجناء الآخرين فتقطع عنه حينذاك. عندها يُكتفى بمنحه إياها في فترات متفاوتة بحسب تطورات وضعه الصحي. هذا النظام ربما لا يعد صالحاً ولا مقبولاً من الناحية العلمية، إلا أن طبيب سجين مصابٌ هو الآخر بالمرض نفسه، هو من اقترح هذه المنهج لتوزيع العلاج حفاظاً على حياة أكبر عدد ممكن من السجناء المصابين بمرض السل.

فقدان الشهية كان العرض الرئيس المشترك لدى المصابين، لذا كان هذا الطبيب نفسه يوصي بتناول الحصة الغذائية كاملة، لأنها الطريقة الوحيدة التي يسري معها مفعول الدواء في البدن. لم أكن أستسيغ تناول الطعام وأجد نفسي مكرهاً على تناوله، مع إنه كان أفضل نسبياً من الأقسام الأخرى، حتى انه كانت تصلنا فواكه

بين الحين والآخر. كان السجناء رغم فعالية المرض الذي يضربهم وقسوة الظرف الذي يعيشونه، إلّا إنهم متعاونون فيما بينهم، ويعطون الحصة الأكبر من هذه الفواكه لأصحاب الحالات الصعبة، لأنه بإمكانهم تقبلها دون باقي الطعام الذي كان تناوله أمراً شاقاً. من العسير بمكان صد رغبة الامتناع عن الطعام لدى مريض التدرن، لكن كان لابد من المحاولة ويجب مقاومة هذا العرض المميت وهكذا بذلت كل جهدي على ما في الأمر من عسرٍ بالغ.

استنهضت طاقتي في الممانعة وبدأ يظهر تحسنٌ طفيفٌ في صحتي في علامة مشجعة على تأثير العقار في بدني، وأيضاً على سلامة أسلوب العلاج المقترح من الطبيب. ولحسن الحظ كان بيننا رجلٌ يدعى جبار من أهالي مدينة الكوت نذر نفسه لمعاونة المرضى. كان يتابع أحوالنا، ويقدم خدمات عظيمة لا يمكن إلّا لمتدرب في معهد تمريض عال فعلها، مع إنه في حقيقة الأمر كان عسكرياً برتبة دنيا ومن أصول ريفية ولم يتلق تعليماً كافياً. واصل حنوه ومساعدتنا على تجاوز الأزمة وحثني كثيراً على الأكل قائلاً:

- حتى لو أكلت الأكل وتقيأت، فعليك أن تواصل

الأكل، لأن لا بديل عنه، هو العلاج الأمثل والوحيد.

هذا الرجل وأمثاله من شباب الخدمات كانوا يبذلون جهداً عظيماً، ويقومون بأعمال لا ينبغي أن تذكر إلّا باحترام كبير. جل اهتمامهم هو العمل بإخلاصٍ وتفان لمساعدة السجناء بشكل عام والمرضى المحتاجين للرعاية والعناية بشكل خاص. كانوا يعينون بعض المرضى حتى على إخراج الفضلات من أبدانهم، لأن عضلاتهم أصيبت بالضمور ولم يعودوا قادرين حتى على أداء هذه الأفعال الحيوية. أما تنظيف المرضى وغسل أرديتهم وفرشهم وتخليصها وإياهم مما كان يخرج منهم من بولٍ وغائطٍ فكان عملاً يومياً روتينياً، يصاب بالدهشة كل من يراه لروح العطاء الهائلة التي يمتلكها هؤلاء الشباب وقدرتهم الخارقة على التضحية والإيثار بلا أي مردود يأملونه أو فرض يدفعهم لذلك سوى مثلٌ إنسانية تتوهج في قلوبهم البيضاء. نفوس لم تغيرها الكوارث، ولم تنسها القسوة اليومية المودة والشفقة. كنت أشفق على من رصّنا في هذا القبر الجماعي المفتوح، لأنه ظن بذلك أنه قد سلبنا الراحة حتى نفطس موتى، ولكنه لم يدرك أن راحة الإنسان في ذاته وليس في مكانه، ومتى ما وجدها فلن يضره أن يكون في أي محل نزل.

16

كان يصل إلينا في بعض المرات لعلها مرة واحدة أو مرتين بالشهر لحمٌ أحمر مستورد على ما يبدو من دول بعيدة مثل أستراليا أو نيوزيلندا، لذا كان يقدم صلباً متخشباً كأنه جثة في كفن، ولا يلينه سوى ماء ساخن يأتي معه في قدر كبير. بعض السجناء ولأسباب دينية امتنع عن أكله، غير إني حرصت على تناوله، لأني كنت بحاجة إلى أي شيء يعيد لي قوتي. مع استعادة الشهية أصبح هذا اللحم وجبة مهمة أسعفني في تجاوز مرحلة الخطر تماماً، بما يمكن اعتباره تعافياً تاماً بمقاييس زنزانة الحجر الصحي، وهي معايير لا علاقة لها بتشخيص الأطباء ولا بموازينهم في العالم الخارجي. لم أتوقف عن أكل هذا اللحم، لأني لم أكن أصلاً مقتنعاً بالامتناع عنه لأيّ سبب. المرض كان حجة جيدة لإيقاف أي جدل حوله، ولحسن الحظ لم يحصل ذلك النقاش في زنزانة الحجر الصحي، لأنه كان أمراً في غاية الحمق أن تقول لمريض أوشك على الموت، هيا امتنع عن الأكل

لتستعجل هلاكك. في أقسام أخرى جرت مثل هذه النقاشات، ولكن انتهت عند الجميع بعدئذ إلى نتيجة واحدة وهي ضرورة أكله بعد توجيه من متخصصين في أمور الدين وعلومه، بأن لا يوجد من داع للوقوف عند أسباب وهمية تحول دون تناوله. تغلب المنطق والعقل كما ينبغي له ذلك في تسيير أمور الحياة، لأن الحياة خلقت بالعقل، وبه وحده تسير، وخلا ذلك ما هو إلّا قصص تسلية وخرافات وأوهام لا تليق بعاقل أن يعتنقها، فهي تليق بالجهلة وأنصاف المجانين وتجدر بهم وحدهم دون غيرهم.

أخذ التعارف بين السجناء مدىً واسعاً لغياب المراقبة الأمنية، فنزعت أنا الآخر حذري من الاختلاط وأقمت علاقات مع بعضهم بعد أن استعدت بعضاً من عافيتي. أكثر ما أثار استغرابي حين دخولي السجن، إن نسبة كبيرة جداً من السجناء ليس لها شغل بالمعارضة السياسية، بل هي ضحية اعتقالات عشوائية وتصفية انتقامية لمناطق جغرافية معينة، وأحياناً بسبب عداوات وخلافات شخصية، أو لأسباب أخرى لا علاقة لها بالتنظيمات السياسية. بعض من السجناء كان يمكن أن يطلق عليهم أطفال لصغر سنهم، وبعض قليل منهم كان طاعناً في

السن. عدد غير قليل لم يكن له شغل بالسياسة لا من قريب ولا بعيد، بل أبعد ما يكون عن أي نشاط سياسي أو ثقافي سواء كان معارضاً أو موالياً، ولا همّ له سوى الانخراط بحياة تقليدية ولا يعبأ البتة بغيرها، فهو يفهم أن سر وجوده في هذا الكون هو البقاء على قيد الحياة فقط، ولا يستطيع أن يدرك أن الحياة من غير هدف تسعى إليه هي موت قبل الأوان. ومع ذلك لم يكن من السهل القول إنهم كانوا تعساء، بل ربما العكس كان صحيحاً.

المثقفون والناشطون كانوا يعانون من عبء الهموم التي جاءتهم من ثقافتهم ومن كونهم عارفين بالحقيقة ومجاهرتهم بها التي لا تقرب قائلها من الناس، بل العكس هو الصحيح غالباً. الناس تحب وتكافئ من يستطيع تخديرها بالأوهام، وقد أدمنت من غابر الزمان على معاقبة من يقول الحقيقة. فمن كان يريد أن يعيش بلا هموم فما عليه إلا مشاركة الآخرين الأوهام وألّا يلتفت إلى من يحاول أن يحذره من أنه مخدوع ولا يشعر بالمكيدة التي وقع فيها. الحقيقة كما هي سفينة للإبحار والرحيل ومغادرة الأوهام، فهي أيضاً مركب سريع يدفع راكبه خارج العالم بالعزلة أو الاغتيال.

قصص اعتقال مضحكة مبكية لا يُفهم منها إلّا شيء واحد هو وحشية النظام وانعدام القانون بالمطلق. أحدهم كان سائق شاحنة بالكاد يفك الخط وسيق إلى الحرب العبثية المندلعة آنذاك. جاء تقرير أمني يخبر عن نشاط مشبوه لجندي يعمل مع حزب معارض يحمل نفس أسم سائق الشاحنة هذا. ما أن وصل التقرير الأمني إلى الفرع الأمني في الوحدة العسكرية حتى اعتقل سائق الشاحنة وأذيق مرّ العذاب باعتباره خائناً عميلاً. لم يصدق الرجل ما يحدث فهو لا يفقه حرفاً واحداً مما يقولون، وهم يطلبون منه كشف أسماء تنظيم سري لم يسمع به أصلاً. بعد مرور أشهر انتبه المحققون الأمنيون إلى الخطأ واعتقلوا الشخص الحقيقي المقصود وتمت محاكمته ونفذ حكم الإعدام به. وبطبيعة الحال استبشر صاحبنا سائق الشاحنة خيراً وصار يرجو الإفراج عنه في القريب العاجل بعد هذا الاكتشاف المتأخر لتشابه الأسماء، لكن الأمور جرت بطريقة أخرى. فبما إنه اعتقل بتهمة سياسية، وقد رأى السجون السرية، لذا كان لابد من محاكمته، وبالفعل حكم عليه بالسجن المؤبد. حقاً ما أسهل سحق الضعفاء في هذا العالم.

شاطرني الزنزانة رجل يفوقني بسنوات عديدة، وكان

إضافة لتقدم عمره ناشطاً سياسياً يحظى بثقافة عامة جيدة، ويتواجد ابن عم له في الزنزانة نفسها يقاربه في العمر، إلّا إنه غير مهتم بأيّ نحو من الأنحاء بالسياسة أو بالثقافة فضلاً عن المعارضة، بل إنه كان يحسب المعارضة السياسية أُناساً سيئين يسببون المشاكل والمتاعب للناس، ولا ينبغي التعاطي معهم. أثار أمره استغرابي، فصرت أتساءل: كيف وصل الرجل إلى هذا المعتقل الرهيب؟ وكيف اتهم بهذه التهمة الخطيرة؟ الفضول يدفعني للظفر بجواب لهذا السؤال المحير، والحياء يمنعني، فقد يعد استهانة به واستخفافاً، أو تدخلاً في أمور شخصية لا شأن لي به. انخرطت يوماً في حديث ودي مع ابن عمه، وتدرجنا بالكلام إلى أن وصلنا إلى منعرج في الحديث كان من المناسب جداً فيه أن اطرح سؤالاً يفض لغز هذا الرجل وأحجيته بلا تحرج فقلت له:

- فلان ابن عمك رجل طيب مسكين، وإني لأعجب حقاً لوصوله إلى هذا السجن. من الذي اعترف عليه بانه منخرط في تنظيم سياسي؟

صعقني برد فوري وبلا مقدمات:

- أنا اعترفت عليه!

- لكن لماذا؟ أليس الرجل بعيداً عن توجهاتك؟

- نعم، هو كذلك.

- لم إذن؟ لابد من وجود سبب فمثلك لا ينهار في التعذيب ولا يورط أبرياء.

- أنا كما تعرفني، إنما هناك وراء هذا حكاية.

واستطرد سارداً القصة:

"اعتقلت في مرة سابقة في السبعينات لعدة أشهر بتهمة الاشتباه بالتعاون مع تنظيم سياسي، ولما لم يجد المحققون أي دليل معتبر لإدانتي أفرج عني. في وقتها لم تكن جميع التحقيقات بهذه الوحشية، بل كان من الوارد الإفراج عن كثير من المعتقلين، لأن كثير من الاعتقالات كانت تأديبية. قليل منها أودى بأصحابها لعقوبة الموت أو السجن الطويل. بعد إطلاق سراحي، جاء جمع غفير من الأصدقاء والأقرباء لزيارتي، كعادة العراقيين المألوفة في الاجتماع عند الأفراح والأتراح. سألني أحدهم بدافع الفضول العراقي المعروف، لماذا اعتقلوك هل فعلت شيئاً ضد الحكومة؟ أجبته جواباً طبيعياً متوقعاً من أي شخص يخرج من المعتقل نافياً التهمة، لأنه ليس من المعقول أن تفرج عني الأجهزة الأمنية لعدم امتلاكها دليل ضدي وأنا أتبرع بإدانة نفسي فقلت له:

- كلا، لم أفعل أي شيء ضد القانون.

فانبرى ابن عمي هذا بصوتٍ عال سمعه كل الحاضرين قائلاً:

- الحكومة لا تعتقل أحداً بلا سبب.

بهتني بهذا التعليق السخيف، لم أرد عليه كي لا تتطور المسألة وأُصبحُ في موقف من يهاجم السلطات الأمنية ويتهمها أمام تبرئة ابن عمي لها واتهامه لي بالعمل ضدها، لكني أسررتها في نفسي وقلت في داخلي:

- يا ابن العم، أنا متأكدٌ إنهم سوف يعتقلونني ثانية، وحينها سوف أقدم لك دليلاً قاطعاً على إن الحكومة التي تدافع عنها تعتقل حتى من لم يكن عنده شيء ضدها.

وبالفعل بعد سنين اعتقلوني ثانية وبدأ التعذيب الذي تعرفه، طالبوني بأسماء الخلية الحزبية، حينها تذكرت ابن عمي على الفور وقلت لنفسي، ها قد جاء وقتها الآن لأدعو ابن عمي ليتنعم بضيافة الحكومة ورفاهية عدالتها، فقلت للمحققين على الفور: إن ابن عمي فلان معي في التنظيم. وكما ترى الآن هو معنا ومحكوم بالسجن المؤبد، ليس هو فقط، بل اعتقلوا معه ابنه بعد ذلك وصار يحسب الآن من العوائل المعارضة الحاقدة على الحزب والثورة. ضحكت كثيراً وشعرت بالأسف أكثر في الوقت عينه، وبمزيد من الغضب على هذه الطريقة

العشـوائية فـي تصـفية المعارضـة وعلـى وحشـية التحقيـق وإصدار الأحكام ضد المعتقلين.

17

كـان قسـم الحجـر الصـحي (المحجـر) مثـل الأقسـام الأخـرى يضـم كثيـراً مـن السـجناء ممـن لا شـغل لـه بالمعارضة أو السياسة. ورغم طيبته الظاهرة ووداعته، إلا إن هـذا الجمع ظل على حاله نفسها حتى بعد سنوات السجن الطويلة، لأنه لم يكن يفكر بالشأن العام بالمطلق ولـم يحضر يوماً في أولوياتـه. هنـاك أنـاس كثر يعيشـون لذاتهم فقط وهمومهم ذاتية، لا يفكرون إلّا بما يتعلق بها، قد يُرى طيباً وديعاً مسالماً، إنما ليس مستعداً للدفاع عن مظلـوم ينتهـك حقـه أمـام عينيـه، بـل ويصـنف الـدفاع عـن المظلومين في خانة الأشياء التي لا تعنيه ولا يشغل نفسه بها، إلّا من باب التأسف فقط. وحينما تزداد قوة الظالم وشراسته يستشعر هؤلاء المسالمون إن خطره بات قريباً مـنهم بسـبب قسـوة واسـتخفاف السـلطة القمعيـة بكـل القـوانين، يبدأ هـذا الصنف مـن النـاس وبخلاف المنطق بتوجيـه اللـوم لمعارضـي السـلطة والمحتجـين علـى إجراءاتهـا، وحتـى ينسـب لهـم تهمـة إنتـاج هـذا الوضـع

الخطـر بـدعوى إثـارتهم المشـاكل ومشاكسـة القـانون. وتصـلب المعارضـة علـى أيـدي مـن كـان علـيهم ان يمتـدحوها، بـل أنهـم يعـزون إليهـا سـمعة سـيئة وينسـبون إليها خطئة جبنهم وحقارة عدوهم.

ولربمـا يبـالغ الـبعض حتـى فـي تبريـر هـذه القسـوة المفرطـة مـن النظـام. هـؤلاء أينمـا وجـدوا يشـكلون عقبـة حقيقيـة أمـام أفعـال تحـدي الجلاديـن التـي يتصـدى لهـا الشجعان. في إحدى الأماسي دخل أحد أفـراد الأمـن إلـى القسـم ورأى سـجناء يشـبكون أكفهـم مـن بـين القضـبان متكئين عليها، اعتبر ذلك سوء أدب لا يغتفر. لقنهم درساً في عـدم تكـرار هـذه المعصية الكبيرة بضـرب مبرح على أكفهم حد التـورم وقـد أحمـرت منتفخة مـن جـراء السياط التي تلقوها. ما أثار حزني وشجني أكثر من تعذيبهم، أن أحدهم علق على الحادثة، بأن ما فعلوه كـان بالفعـل أمـراً مقززاً وما كان ينبغي لهم أن يخرجوا أيديهم بهـذا الشـكل كأنهم قرود في قفص!!! أليس أمراً شنيعاً وحـدثاً جللاً أن الفظاعـات أصبحت لا تهـز النفـوس؟ إن هـذا التعـود على الشر هـو مـا ينبغي أن يحـزن لـه أكثر من أي شـيء آخـر. الجريمـة تقـع يومياً فـي كـل مكـان على هـذه الأرض، ولا سـبيل لإيقـاف ذلـك؛ إذ أنـه واحـد مـن لـوازم الاجتمـاع

البشري. تكرار وقوعها شيء والسماح لآثارها بالبقاء شيء آخر؛ فحينما تحافظ على وجودها حية في المجتمع فإنها سوف تنمو وتمسخ النفوس وتشوه ثقافة المجتمعات. هذا كله إذا أصبحت فعلاً مكرراً معتاداً عليه، فكيف إذا وجدت من يبرر حضورها؟

رغم معاناة السجن الرهيبة وحضور شخصيات سياسية مؤثرة فيه، إلّا ان هذا لم يساعد هؤلاء في الانخراط بأيّ نشاط عام، بل إذا ما توفرت لهم فرصة لمبارحة المعتقل فإنهم سرعان ما سيذوبون في المجتمع دون إحداث أي تأثير فيه. ولن يكون بمستطاعهم أن يحولوا مظلوميتهم إلى قضية، بل غاية ما يقدرون على فعله أن يجعلوا منها مجرد ذكريات مريرة لا يتمنون أن تعاد عليهم مرة أخرى. بالمقابل كان هناك أشخاص كثر جداً من أعطى للسجن طابعاً خاصاً، ومنهم من حَوّله إلى مدرسة فكرية وسياسية. هناك قسم ثالث ليس بالقليل ممن دخل السجن بلا قضية حقيقية لكنه كان كمن تلقى في السجن تدريباً وتعليماً، وانتفع من ذلك ليصبح شخصية رائدة في مجتمعه، وعمل بوعي، وإخلاص لتغيير، واقعه. أما القسم الرابع فكان مبغوضاً مذموماً لأفعاله الخسيسة التي قام بها في السجن من سعيٍ

ووشاية أو قام بأفعال قبيحة يندى لها الجبين، ومن حسن الحظ إن هؤلاء كانوا نسبة قليلة جداً معروفين بالأسماء على نطاق واسع جداً بين كل السجناء. الكل كان يعرفهم، ويحتقرهم ويتحين الفرصة للحد من تأثيرهم.

في أحد الأيام دلف إلينا واحد من هؤلاء السعاة، ممن يوحي لك بالتقزز ما أن يقع ناظريك على وجهه من غير أي سبب. أُطلقت صفارة الإنذار بين السجناء بالإشارات والغمز، وكان لابد من توخي الحذر إلى أقصى حد، ومن معالجة سريعة للموقف. هكذا نوعٌ من البشر يعيش على إثارة الخوف والذعر عند الآخرين، ويبرز وجوده من خلاله، وعلاجه يكون بنقل الخوف إليه لإيقاف عدائيته وخطره. من العسير جداً، بل المستحيل تصديق الفكرة الماكرة التي تروج أحياناً من بعض السذج أو قليلو الخبرة بأن هذا النوع الخبيث يتوب عن جرائمه، ويتحول إلى جزء صالح في المجتمع لو عومل جيداً. هكذا نوع كالأفاعي أفضل ما يمكن فعله هو نزع أنيابه لا تغيير طباعه التي جبل عليها. صحيح إن الانتقام لا يحل المشاكل، بل يفاقمها، لكن العقوبة القاسية أمر آخر غير الانتقام، وهي من تجعل خبيئته الخبيثة تتحجر في داخله ولا تجد منفذاً للخروج. إن هؤلاء الناس بلا قيم أخلاقية

وكل همومهم مادية نفعية، ولذا فإنهم ينتهزون أي فرصة لتحقيقها بغض النظر عن طبيعة أو مشروعية هذه الوسيلة، ولما كانت همومهم كذلك فإن السلوك الأجدى بالتعامل معهم هو تهديد هذه الطموحات وحرمانهم منها، وسوف تجدهم حينئذٍ سلسين مطيعين، لكن الحذر كل الحذر منهم فإن طبعهم الرديء سوف يطل برأسه القبيح إلى عالم الخبث والجريمة في أول مرة يرى العيون قد غفلت عن طبعه الماكر.

وهكذا كان، إذ حوصر هذا الخائن بأعين تنظر إليه شزراً. توجس شراً كبيراً وأيقن إنه بات بين فكي مجرشة صماء سوف تطحنه وتحيله دقيقاً ناعماً تطأه الأقدام وتذروه بعدها الرياح. مما زاد من مخاوفه إن الحلقة الملتهبة كانت تتسع ولا يجد منفذاً منها، ورغم اقترابها منه فإنها لا تطبق على رقبته، مما أدخل على قلبه رعباً مضاعفاً وصار الهلع فراشه والفزع لحافه. عالم جديد يجهله ولم يخطر له ببال انبجس الآن أمام بصره؛ فصار متيقناً من انتهاء أسطورته، وبات جل حلمه ألَّا يهلك تحت أقدام ضحاياه.

أصدر مراقب الزنزانة له أمراً بأن يتخذ من جوار المرحاض مضجعاً له، وهو أسوأ مكان يمكن أن ينام فيه،

فأدرك عندها أن أيامه السوداء قد ابتدأ عهدها الطويل، وسط مقاطعة جماعية، لا يكلمه أحد ولا يتعامل معه أبداً، إلّا المراقب الذي كان يوجه إليه أوامر أكثر مما هي تبادل حديث معه. في أحد الأيام اندلع شجارٌ صغير بين سجينين وحاول أن يزج نفسه فيه قليلاً بصورة ودية لفض النزاع تمهيداً لقبوله عضواً عادياً في المجتمع، إلّا إنه وجد أن المتشاجرين أنهوا خصامهم بسرعة قياسية والتفتوا إليه. ضربه شاب ريفي طويل يدعى حسين من أهالي مدينة العمارة بكلتا قبضتي يديه على ظهره. كان حسين شاباً فارع الطول قوياً جداً ولو أنه دفع أحداً مزاحاً لأوجعه فكيف به وقد لطمه في أوج غضبه وبمنتهى قوته. ضربة لفرط قوتها وعنفها أجبرت الخائن على إفراغ ما في معدته بالحال، ومن حينها سكت هذا المنافق (مصطلح يطلق على الوشاة) "سعيد أبو علي" لدهر طويل، ولم يحشر نفسه في أي أمر بعدها.

18

لم تكن قصة المنافق "سعيد أبو علي" بالوشاية فريدة من نوعها، كما إن نسبة الخونة لم تكن ضئيلة. فقد كان هناك عدد آخر مرشح للانضمام إليهم تحت قسوة الظروف الحياتية التي يعيشها. بالمقابل كان هناك سعي حثيث من نسبة ليست بالقليلة هي الأخرى للقضاء على هذه الجماعة الضعيفة الخائنة. وكان يجري التخطيط بهدوء وترقب لفرصةٍ مواتيةٍ للإطاحة بسيطرتهم على مناصب المراقبين والخدمات المنفذ الوحيد للتعامل المباشر مع الأمن. في فترة لاحقة ومع تراجع الوضع المتأزم على جبهات الحرب الذي كان يهدد وجود النظام نفسه قبل سنوات، وبعد أن استعاد النظام توازنه من ضربات عسكرية كبيرة أفقدته كل انتصاراته، بل ألحقت به هزائم نكراء، عاد من جديد ليوقف الزحف العسكري الإيراني. بعد ان اطمأن إلى بقائه في سدة الحكم واستقرار الوضع العسكري، شهد وضع السجن انفراجاً نسبياً؛ إذ خفت حالات الانتقام والتعذيب العشوائي، وإن

لم تتوقف بالكامل. تزامن التحسن النسبي مع نقل النقيب غالب الدوري المتهم بتنفيذ الإعدام بمعارضين سياسيين بدلاً من مدانين بالقتل في قضايا جنائية.

هذا التخفيف الأمني النسبي كان فرصة مثالية للوثوب على الخونة، وبدأ من تسلل شاب بغدادي شجاع سريع البديهية إلى صفوف الخدمات يدعى سعد. صار يحتال عليهم بتقديم بلاغات إلى الأمن تكشف بعضاً من أفعالهم التي يستقبحها رجال الأمن، وتدريجياً تم التخلص منهم واحداً تلو الآخر. كانت عملية معقدة محفوفة جداً بالمخاطر، وتنطوي على قدرة كبيرة ليس من الشجاعة وحسب، بل على سرعة البديهة وعلى التظاهر بادعاء الولاء للأمن، بينما كان في الواقع يخفي عكس ذلك تماماً. لم تنته معاناة المنافقين بإزاحتهم من الخدمات وحسب، بل بمعاقبتهم في الزنزانات التي كانوا يدخلون إليها، وتتم مقاطعتهم بالطريقة نفسها التي قوطع بها ذاك الخائن "سعيد أبو علي" في المحجر. تحول السجن بعدها إلى جحيم حقيقي عليهم، إذ لم يسلموا حتى من الضرب في بعض الأحيان على أيدي السجناء وفقدوا كل حظوة عندهم لدى الأمن، بل أصبحوا أعداءً لهم وعاقبوهم بشكل مبالغ به أحياناً من الإذلال

والإهانة. وهكذا انتهت حكايتهم وحدَّ من خطرهم، الذي تسبب بمقتل عدد مهم من السجناء في أحداث مؤسفة.

فيما كنت أستعيد عافيتي كانت صحة آخرين تسوء بسبب انتشار مرض السل الذي أصبح وباءً كارثياً يهدد الجميع. أصيب ثلث السجناء تقريباً بالتدرن، وانتشرت أمراض غريبة وحالات مرضية متنوعة بسبب نقص التغذية والرطوبة والظلام وغياب الظروف الصحية. مثلاً كان يتكرر انسداد مجرى المرحاض، ويحاول السجناء بأساليب متعددة فتح المجرى الوحيد لها في المرحاض، بإدخال أيديهم وأي شيء عندهم لإخراج ما علق، لكن بلا جدوى. تطفح المياه الآسنة إلى أرضية الزنزانة وعناصر الأمن لا يلقون بالاً إلى طلبات السجناء، بل ولا يعيرونها أدنى اهتمام كأنهم لا يسمعون صرخات احتجاجهم. كان يتأخر قليلاً وصول الماء الآجن لمقدمة الزنزانة حيث الباب والقضبان، لأن الأرض كانت مائلة قليلاً نحو المرافق بطريقة هندسية لتصريف المياه، لذا يتجمع السجناء في مقدمة الزنزانة. الماء الآسن يواصل زحفه نحوهم ويدفع بعضاً منهم إلى تسلق القضبان والتعلق بها هرباً منه ومما يحمله من بقايا فضلات بشرية، فيما يدرك آخرون أن لا مناص من هذه الفوضى

فيستسلمون لواقعهم، فيأكلون ويشربون وقوفاً، بل حتى يناموا وقوفاً وأرجلهم تخوض في مياه قاءتها المجاري بكل ما فيها.

يجمع السجناء المياه الثقيلة ليل نهار بآنية الطعام المتوفرة عندهم، ويرمون بحمولتها من خلال الفتحات المؤدية إلى ساحة الفناء الخارجي للتخفيف من عدد الأشياء العالقة في الماء، ولتخفيف مستواه الذي يشهد مداً متزايداً. يبقى الحال هكذا لنهارين متعاقبين بلياليها وأحياناً أكثر من ذلك، والسجناء أبان ذلك يأكلون في الآنية عينها التي يستعملوها للتخلص من الفضلات. وهذه ليست مناسبة منفردة اكرهنا فيها على الأكل في آنية ملوثة أو تناولنا طعام ملوث بصورة فاضحة.

كان فضاء الزنزانة ضيقاً ومزدحماً للغاية كما بالسجناء كذلك بحاجياتهم. أي شيء يراد خزنه أو استعماله لاحقاً يوضع في آخر الزنزانة قريباً من المرحاض، مثل فردة نعال مستهلك يستعمل لتجفيف الماء، وكذلك حساء الصباح (الشوربة) يحفظ أحياناً قسم منه لآخر النهار في جردل صغير، لأن بعض السجناء كان يمتنع نهاراً عن الأكل والشرب صياماً لأسباب دينية. فردة النعال المستخدم للتجفيف لم تكن غالباً تربط بإحكام لتكرار

استعمالها في اليوم الواحد؛ لذا يتكرر سقوطها في جردل الحساء. حين تكتشف، تُسْتَخْرَج وتنظف مما علق بها، ومن ثم يغرف الصائمون من الحساء ذاته لتناول إفطارهم، لأنهم لا يملكون خياراً غيره. كنت أمزح مع أحدهم يوماً عندما تحدث عن الجراثيم التي تتكاثر في هذه البيئة القذرة فقلت له: اطمأن يا عزيزي هنا لا توجد ميكروبات ولا جراثيم ولن يأتي المزيد منها، لأنها باتت تخشى على صحتها.

هذه الظروف رغم مأساويتها فقد كانت الزمن الأفضل للحكم على الناس. إن التعرف على جوهر الرجال لا يكون حينما يسود القانون والاحترام والخوف، بل عندما لا تكون هذه الأمور موجودة، حينذاك يتصرف كل شخص على هواه، وكما تملي عليه طبيعته، دون أي ضابط أو مراعاة لأيّ شيء. وعندما ترى الهدوء والتعاون يسود رغم هذه الفوضى العارمة تدرك أي طينة صنع منها هؤلاء الناس، وكأن الأرض لم توجد إلا لأناس كهؤلاء. مجتمعٌ متماسك يقارع هذه الظروف القاسية كأنه يقف تحت الشمس في يوم ربيعي رائق ولا يأبه لسحب الكآبة التي لا ينقطع مطرها. حينذاك كنت أزداد إصراراً على مواصلة التحدي وأردد مع نفسي بأننا لابد أن نتألم في

سـبيل سـعادتنا المقبلـة، وكـل مـا يحـدث الآن هـو أننـا نشتريها بالآلام.

19

أمام انعدام الرعاية الصحية بالمطلق، كان فريق من أطباء، ومتدربين في التمريض، وطلبة في كلية الطب اعتقلوا قبل إكمالهم الدراسة يعملون ما في وسعهم لتقديم المعونة بوسائل هي بنفسها تخلو من الظروف الصحية، إلّا انه ليس باليد من حيلة. انتشرت بكثرة حالة مرضية تدعى الجيوب المائية تصيب الرئة، وكان لابد من سحب التقيحات والسوائل من تلك الجيوب، إلّا إن الطريقة التي كان يتم فعل ذلك بها أشبه بحكاية رسوم متحركة تلائم خيال الأطفال، أو واحدة من بطولات جندي أمريكي لا ينتصر إلّا في خيال مخرجي هوليود. يأتي الطبيب السجين بخرطوم دقيق يستعمل فيما يعرف بالمغذي، ويثقب جسم المريض بأيّ أداة حادة متوفرة عنده لإدخال الخرطوم من خلالها، ليبدأ بعدها بسحب القيح من تلك الجيوب وسط صرخات الألم من المريض، وحينما ينتهي الطبيب من تلك العملية الجراحية يطحن قرص (Paracetamol) باراسيتامول أو

أسـبين (ASPAIN) علـى موضـع الجـرح لتعقيمـه. الأغـرب مـن هـذا كلـه، إن القضـبان كانـت تفصـل بـين الطبيب الواقف في الممر والمريض داخل الزنزانة أثناء إجراء هذه العملية. كانت تجري عمليات جراحية أخرى باستعمال موس حلاقة لشق غدد وأكياس تظهر في أماكن متفرقـة علـى أجسـاد السـجناء. جميـع هـذه العمليـات الجراحية كانت تتم بلا مخدر رغم الآلام، لأنه يستحيل العثور عليه.

زرق الإبـر كـان هـو الآخـر مـن القصـص الغريبـة والحكايات العجيبة، ليس لأن عدم توفر الدواء الكافي وحده معضلة كبيرة، بل ندرة الإبر الصالحة كانت مأزقاً أكبر. الإبرة برأسها الدقيق يمكن أن تستعمل لمرة واحدة فقط، وربما أكثر من مرة في بعض الحالات الطارئة، أما الحاجة إلى الاستعمال المتكرر ولعشرات المرات فكان خيـالاً فرضـه واقـع الوضـع الصـحي المتـدهور بكثـرة الإصـابات بشتى الحـالات يرافقـه نقـص دواء هائـل ممـا أجبر الأطباء على تقسيم دواء الإبرة الواحدة على أكثر مـن مـريض. مـن المعلـوم إن رأس الإبـرة الـدقيق يغـدو غليظـاً بعـد تعـدد الاسـتعمال ولا يمكـن لـه أن ينفـذ فـي الجلد، مما يعني عملياً عدم صلاحية الإبرة للاستعمال،

ولأن الأشياء كلها في السجن ذات قيمة كبيرة ولو كانت تعد نفاية غير قابلة للاستعمال بنظر من يعيش خارجه، فكان لابد أن تبرد الإبر ليعاد استعمالها، إنما هذا حل صعب للغاية فمن أين تحصل آلة برد؟ ومع ذلك، فقد اهتدى المشرفون على الأمور الطبية إلى حل لا يرد على بال ولا يمر على خاطر؛ إذ وجدوا أن بحوزتهم أكبر آلة برد، ومتوفرة في كل أرجاء السجن. لم تكن سوى الأرض الإسمنتية الخشنة، هكذا جاء الحل السحري الناجع، وبه انتهت المشكلة ونفخت الروح في الإبر العاطلة ودخلت الخدمة من جديد. صار بالإمكان استخدام الإبرة مرات ومرات، إنما طبعاً مع زيادة في الوجع على السجين أن يتحملها وهي تنفذ إلى جسده. أمرٌ لم يكن صعباً تكبده، وهو الذي عانى أكثر بكثير من هذا من الألم وتحمل أنواع الصعاب والمشقة.

قصة الإبر لا تنتهي هنا، إذ إن تعقيمها هو الآخر أمر لا مناص منه وللقيام بذلك لابد من توفر ماء مغلي. في المحجر كانت توجد علبة معدنية صغيرة لتعقيم الإبر، أما في سائر الأقسام الأخرى فقد جرى تدبير الوضع بتوصيل سلك كهربائي من المصدر الوحيد للكهرباء في المصباح المعلق بالسقف وفي نهاية السلك تربط ملاعق ثم تغمر

فـي المـاء لتعمـل علـى تسـخين المـاء بطريقـة الـدائرة الكهربائيـة. المـاء السـاخن الزائـد عـن حاجـة التعقـيم كـان يستخدم في تحميم المرضى. في قسم الحجر الصحي بسبب انعدام الرقابة الأمنية كانت عملية غلي الماء تجري بشكل مريح. ويستخدم بصورة واسعة لأن اغلب سكانه مـن المرضـى، بينمـا كـان الاسـتحمام بالمـاء البـارد عمـلاً روتينيـاً يفعلـه بـاقي السـجناء الأصـحاء، ولا يتغيـر ذلـك صيفاً ولا شتاءً. ظلت طريقة تسخين الماء تستخدم بنجاح في المحجر إلى أن وقع حادث كبير في أحد الأيام كاد أن يؤدي إلى كارثة كبرى.

فبعد أن استسهلت عملية تسخين الماء، أصبح الماء الحار مطمعاً في أيام الشتاء حتى لغير المرضى مع ضعف الأجسـاد وقسـوة البـرد. وبـدلاً مـن الإنـاء الصـغير لتعقـيم الإبـر صـار برميـل مـاء بلاسـتيكي هـو المستضـيف لهـذه العملية المحظورة. جرت الأمور كما يراد لها إلى أن جاء اليوم الموعود. ففي يوم شتائي محشو بالبرودة ضاعف قرسـه وهـن الأبـدان ورثاثـة اللبـاس وتهالـك الفـرش وقلـة الأغطية، التي ما فتأنا نستعين بها في اليقظة والمنام لرد غائلة البرد عنّا. وبينما كان الماء يغلي بأقصى ما يمكن له، تحلق قربه بعض السجناء يستلذون بدفء يبعثه البخار

المتصاعد وهو ينفذ بسخونته إلى عظامهم المنخورة من المرض والبرد. بينما هم يتسامرون ضاحكين كان يشتد فوران الماء في غفلة من العيون، وإذا بصرخة فزع هائلة ملأت كل جوانب المحجر ثم تبتعها صرخات عديدة وكثيرة بلا ملامح. يزدحم الممر الضيق بحشدٍ يعدو على غير هدى وعلى وجه أفراده سيماء فزع ورعب تغطيهم سحابة ضخمة من بخار كثيف كأنها دخان أبيض. سحابة استوعبت كل شيء وكأنها غبرة معركة خلفتها ثورة خيول جامحة لا تتوقف عن الخبب، وسيطر الذهول على الجميع حتى ظن البعض أن عناصر الأمن قد شنوا هجوماً لقتل السجناء، وما هي إلّا دقائق حتى تبينت الكارثة ولاح جزء من تداعياتها الحقيقية.

كان الماء قد واصل فورانه بعد أن بلغ درجة الغليان وقارب حداً لم يعد البرميل البلاستيكي بقادر على تحمله، فانصهر من شدة الحرارة، وانهار البرميل بكامل حمولته ساكباً الماء الحار بسرعة خاطفة على كل من كان يجاور البرميل. حاولوا الفرار، لكن لم يقدروا على الإفلات لأن الكهرباء لم تزل تسري في الماء فأوقفتهم في مواضعهم وأسقطتهم أرضاً. من وثب هارباً غطس بغير أهبة ولا استعداد في بركة ماء يغلي لتسلخ جلده

كاملاً، إلى أن بادر أحد السجناء بمهارةٍ وخفة إلى نزع السلك الكهربائي لكن حينها كان الماء الساخن قد فعل فعلته بالوجوه والأجساد بشكل رهيب.

كان الموقف أكبر من ان تتلافاه إسعافاتنا الأولية البائسة، لذا تم الاتصال بالأمن لنقل المصابين بالحروق ونقلوا بالفعل لمستشفى مدني خارج السجن في جانب الكرخ من مدينة بغداد. جرت هناك معالجتهم بشكل أولي، إلّا إنه كاف لإنقاذ حياتهم من موت محقق حرقاً ثم عادوا للسجن ثانية بعد ثلاثة أيام وظلوا بعدها قرابة الشهر عراة لا يستطيعون ارتداء قطعة ملابس واحدة لشدة الحروق التي ألمت بهم. تدبّر السجناء أمرهم بصنع ما يشبه قفص حديدي غلف بالبطانيات لتدفئتهم، ولرفع الحرج عنهم بحجز الأنظار والعيون عن أجسادهم المجردة من كل شيء حتى من الجلد. انتشلوا من الموت، ولكن ظلت أجسادهم طوال حياتهم تحمل ذكرى الحادث المروع وفقد من حينها فرصة الاستحمام بالماء الحار خشية انكشاف الأمر بعد أن مرت هذه الحادثة بسلام. لم يجر تحقيق في الحادث لسبب مجهول. لعله كان حسن الحظ أو لأن القسم كان مخصصاً للمرضى. ولم يشأ المسؤول الأمني الذهاب

بعيداً في التحقيق خشية اضطراره لإنزال العقاب ببعض السجناء، ومع تردي وضعهم الصحي العام كان أي عقاب سيتحول إلى مذبحة حقيقية. وإلّا في الواقع لم يكن أحد ليصدق ولو كان أبله كبيراً إن علبة معدنية صغيرة مخصصة لتعقيم الإبر هي التي سببت هذه الحروق كلها.

الأفعال المحظورة كانت تنطوي على مخاطرة كبيرة بنفسها وبعواقبها، ولكن بعضها قصص طريفة. ففي أحد المرات وصل خبرٌ إلى عناصر الأمن بحدوث عملية تسخين للماء في إحدى الزنزانات فدخل

أحدهم إلى أحد الأقسام بغتة وتوجه بعجل ومباشرة إلى الزنزانة المقصودة. لم يكن بالإمكان التخلص من الماء الفاتر الذي بدأ تسخينه للتو، إلّا إن السلك الكهربائي وعدة التسخين تم إخفاؤهما بعجل. توجه الرجل إلى البرميل صارخاً بوجه السجناء مستفهماً:

- كيف حصلتم على هذا الماء الساخن؟

فأجابه أحدهم ببرود:

- لا يوجد عندنا ماء ساخن، إنه ماء بارد سيدي.

ارتسم العجب والاستغراب على محياه وسأل باستنكار.

- وهـذا المـاء مـاذا تسـميه؟ مشـيراً إلـى برميـل المـاء الساخن.

فتقـدم السـجين بثقـةٍ كاملـة وهـدوءٍ تـام واغتـرف بيـده الماء وقال له:

- هل تقصد هذا سيدي؟ إنه ماء بارد.

أصابه الذهول وهو يراه يمد يديه في الماء الساخن من غيـر أن تبـدو علـى جبهتـه أثـار ألـم لسـعة الحـرارة، فـدعا آخرين وقال لهم:

- ما هذا؟

كان الجواب جماعياً:

- سيدي إنه ماء بارد.

طلب منهم جميعاً أن يضعوا أيديهم واحداً تلو الآخر فـي المـاء وكـانوا يفعلـون ذلـك بـلا أدنـى تـردد، بـل إن بعضهم كان يتعمد رسم ابتسامة عريضة على وجهه. ظل ينقل نظراته بين وجوههم وبين الماء وهو لا يصدق ما يدعى. تسرب الشك إلى نفسه، فعاود مد يده من جديد فشعر بسخونة الماء، بينما السجناء يدخلون أيديهم فيه بلا أدنى تردد مراراً وتكراراً، ويقسمون له بأن الماء بارد ولا تبدو عليهم أي من مظاهر الألـم أو الشعور بالحرقة. طلـب فـي محاولـة يائسـة أخيـرة مـن أحـد الخـدمات أن

يدخل يده، ولما رأى الأخير إصرار السجناء على المكيدة التي نصبوها بسرعة البديهة، اضطر هو أيضاً أن ينخرط في اللعبة ويؤكد على صحة أقوالهم فقال له:

- نعم، إنه بالفعل ماء بارد سيدي.

خرج عنصر الأمن وهو غير مصدق نفسه، ولا يعلم أهو في حلم أم علم. أراد أن ينصب فخاً لهم فوجد الفخ منصوباُ له فخرج كمداً ذاهلاً، بينما انبطح جميع السجناء على ظهورهم من الضحك على غباء الشرطي وخيبة الواشي.

20

يضج المكان بكائنات وهوام عديدة استوطنت الأجساد خصوصاً في فروة الرأس فهو مكانها الأثير. لا يمكن التخلص منها مع انعدام النظافة، إلا بالتخلص من كامل الشعر؛ لذا كانت تجري عملية حلاقة الرأس بواسطة الشفرة لإزالة شعر الرأس تماماً بحفلة جماعية في فترات متباعدة، وكانت أقرب إلى جز الشعر منها إلى الحلاقة. كانت هذه الطريقة هي الحل الأمثل تخلصاً من عملية تنظيفه، لإن الاستحمام كان أمراً يتعسر بلوغه، ولابد من حصوله بطريقة جماعية نظراً لشحة الماء. يعين يوم للاستحمام الجماعي ترفع فيه البطانيات العسكرية السوداء الرقيقة المخصصة للنوم، لتصبح الزنزانة حماماً عاماً يقف السجناء فيه مجردين الا من سراويل قصيرة لستر العورة. بعد أن يضعوا رغوة الصابون على أجسادهم ينالوا رشقة ماء خفيفة. خلال دقائق يجب أن ينتهي الجميع إذ إن خرطوم الماء لا يسمح ببقائه في الزنزانة لأكثر من نصف ساعة وخلال هذه الفترة ينبغي ملء

برميل الماء المخصص لكل الاستعمالات الأخرى من شرب وشطف أوان ولقضاء الحاجة. كانت العملية مضحكة بكل ما فيها لأنها بالواقع لا تحقق من النظافة إلّا شيئاً يسيراً، إلّا إن السجناء كانوا يعيشون فيها لحظات سعادة خاصة ويخلقون لأنفسهم جواً استثنائياً من المرح بتبادل الطرائف والمزاح. إنها فرصة نادرة فعلاً فمن أين يمكن لهم أن يتوفروا على لحظة كهذه يحظون بها بهذه الكمية الوفيرة من الماء.

كان القمل مقيماً دائمي بأنواعه الثلاثة، قمل الرأس، قمل الجسم وقمل العانة، والعثور عليه غاية في اليسر بأقل جهد وفي أول حملة تفتيش عنه. تنطلق حملات التفتيش بشكل مستمر لأنه يقف وراء ظاهرة الحك المزعجة المزمنة التي تصل في بعض المرات مدىً لا يطاق، يهرش السجين معها كل بوصة في جلده، من قمة رأسه إلى تحت إبطيه وفي مواضع حساسة يحار كيف ينبشها بحثاً عن هذا الكائن. في إحدى المرات حلت عليّ لعنة الحكة بشكل جنوني ولم أعد أقوى على احتمالها فقررت حزّ كل شعرة نبتت على جسمي في الحال. بالطبع لا يسعني القيام بهذا إلّا بمساعدة، فطلبتها من زميل آثر الانتظار قليلاً لما بعد تناول وجبة العشاء،

التي حل وقتها. صب الحساء في الأواني المعدنية، إلّا إن ذلك لم يردعني عن المضي في قراري فقد أصابتني هستيريا هرش، فصرت أصرخ بوجهه أن يترك كل شيء ويقوم من فوره ويخلصني من الشعر خصوصاً ما تحت الإبطين. لا شك أنه موقف فكاهي، فأنا اشعر بحرقة نار مستعرة جراء قرصات القمل، فيما السجناء الذين يتهيؤون لتناول العشاء يضحكون على لجاجتي وعلى غضبي، وأنا أدور كمن يرقص مذبوحاً من الألم. حتى أنا استغرقت بعدها في ضحك طويل على نفسي لكن بعد أن تخلصت من شعري ومن الأقزام الساكنة فيه.

نوع القمل الذي يعيش في فروة الرأس كان السجناء يسموه كالبتوس وفيما يبدو أنه مشتق من اسم القمل باللغة الإنجليزية (louse) ربما سمعت اللفظة من طبيب ما بطريقة خاطئة وأنتجت هذا المصطلح الغريب. ولم يكن من السهل أبداً التعرف على مصدر بعض المصطلحات الخاصة في السجن وتشعر كأنها لغة خاصة ولدت هناك في زمن سحيق بقدم زمن الآلهة حينما بلبلت الألسن في بابل القديمة.

السجن عالم آخر خلف هذا الكون، والعيش فيه يبرز الجوهر الحقيقي لهذا العالم. ليس من قوام لهذا الوجود

إلّا بالحياة ولا قيمة للحياة إلّا بالحرية، ولا يمكن إدراك الشيء إلّا بادراك ضده. وحيثما يوجد الضد يوجد الوعي بحقيقة المعنى وعند غياب الضد لن تعرف إلّا مظاهر الأشياء دون كنهها وحقيقة جوهرها. الحياة، ليس أن تجري دماءٌ في العروق ولا أن ينبض قلب بضربات تلقائية بفعل لا إرادي، ولا هي هواء يملأ رئتين ويزفرهما، لأنه حتى الأجساد الميتة يمكنها أن تفعل ذلك. الحياة أن تشعر بالسعادة وتلمس بحواسك جمالاً أحاطت هالته بك، ويصيبك غم عظيم ويعتريك حزن كبير حين يزاحم الجمال قبح البهيمية ساعة يظلم الإنسان نفسه بظلمه أخيه. وليس هناك من مكان أكثر مناسبة لرؤية كل هذا بأفضل صوره وأدق معانيه أحسن من السجن، فهناك يولد الوعي بمعنى الحياة وهناك تتكشف جمالات الحرية.

في عالمٍ ينأى عن الأسوار الإسمنتية العالية وعن أبراج الحراسة يمكن تصور معنى الجمال والحرية، لكن الوعي بأدق معانيه يولد فقط في تلك الدائرة التي تغلقها أسلاك شائكة وخنادق محفورة بعمق قامة بشرية مغمورة بمياه راكدة، وفي رقعة معتمة تقع تحت مرمى بنادق قنص لجنود قاطنين في أبراج محصنة. نعم هناك يولد

الوعي، وهل يولد الإنسان إلّا من المعاناة؟

21

مصطلحات لا يعرف أحد كيف اشتقت، وبدت غريبة جداً على كل اللغات. تارة تسمع عنها حكايات تبدو شبيهة بنسج الأساطير تحاول تفسيرها وفك شفرتها وفض لغزها، لكنها تختفي بسرعة مثل طيف عابر؛ ليبقى السجن أحجية عصية لا يمكن لأحد أن يدرك تماماً كل تفاصيله ولا الأشياء التي تجري فيه، وإنْ سكن فيه أزلاً وعاش دهراً. مصطلح مثل "الكانة" لم أجد له تفسيراً أبداً، حاولت أن أشتق له علاقات مع المسمى وأنسج قرابات له مع لغات شتى بلا جدوى. رغم ذلك لم نجد بداً من التعامل معه، فهو الأمل الوحيد المتبقي لستر الاجساد العارية ووقايتها من برد لا يرحل عن مكان حظر على الشمس الوصول إليه سرمدا. نسيج سميك بني غامق في الغالب واحياناً رصاصي يوزع في فترات متباعدة وبوتيرة غير كافية كما هو حال كل الأشياء التي تمنح ليس للاكتفاء، إنما للإبقاء على الأنفاس تصعد شهيقاً وزفيراً ليس أكثر من هذا. منظرها الكريه يبعث

على القرف والاشمئزاز، ويثير مشاعر كآبة سوداوية تدفع للزهد بها والإعراض عنها، ورغم الحاجة الماسة لها فإنني لم أسمع أو أرَ يوماً تنافساً عليها أبداً.

ندرة الأغطية ورطوبة الأرض الإسمنتية وتهلهل الملابس تجعل من زمهرير الشتاء جحيماً حقيقياً، لا يمكن لأحد أن يشعر بالدفء فيه ولا للحظة واحدة. لا وسيلة أمامي للخلاص من هذا البرد اللافح سوى بأن أحلم بالغفو لليلة واحدة في فراش تعده لي أمي، أدخل تحت دثاره كأني اضطجع قرب موقد يهيل عليّ دفئاً عظيماً. متى يمكن لي أن أحظى به فأرى البرد ينسل بعيداً عن عظامي وهو يصحب معه تعب سنوات صعبة قاسية. برد قارس ينفحني ولا أقوى على مجابهته كأني بشر حولته الآلهة إلى تمثال من حجر ونصبته في العراء فوق قمة جبل بعد أن جردته من أي دثار، تهب عليه رياح باردة يحس بلفح بردها ولا يستطيع ردها حتى يتكلس ثم يتكسر متيبساً.

في كيس من الخيش كان يصل إلينا الخبز أحياناً، وبعد أن يتم توزيع الخبز نجد أحياناً فرصة للاحتفاظ به بعيداً عن عيون الأمن. لم يكونوا في حقيقة الأمر يهتمون لهذا الكيس، لأن لا فائدة منه، لكن كانت لهم سياسة ثابتة

باسترداد كل شيء يدخل إلينا ليسلبوا منا الشعور بتجدد الحياة. كانوا حريصين على أن نعيش مع الأشياء القديمة المستهلكة المندثرة ليخلفوا فينا إحساس مميت بإننا صفحة من ماضٍ انطوى، وأننا نوشك على الانقراض معه، ولا يوجد أي أمل بتجدد الحياة أبداً. إنما كيس الخيش هذا صار سبباً من أسباب الدفء مع وجود خياطين مهرة قاسمونا العيش في الزنازين. كانوا يفصلونه ليكون على شكل كنزة أو معطف قصير ومن ثم يبُطن بقطعة من الكانة فيصبح قطعة رائعة مميزة تحفظ للجسم حرارته. كنت محظوظاً حينما حظيت بواحدة منها من خيش اسمر وأكمام زخرفت هي والياقة بالكانة الحمراء؛ فبدت كنزة ملونة. إلا أن ذلك الفرح الغامر بها لا يخفي حقيقة منظري المضحك فقد كنت وأنا أرتديها كمن يريد الحضور حفلة مجتمع مخملي ببدلة سموكن اقتناها من سوق شعبي. رغم ذلك فقد كنت أشعر حين ألبسها بتميز طبقي لأني أنعم بالدفء فيما آخرون يتسربلون بثياب لا تسترهم ولا تقيهم شيئا. لم أكن المتميز الوحيد فقد كان هناك رجل أربعيني يدعى محمد محسن ويكنى بأبي ضياء من مدينة الشطرة صنع هو الآخر له معطفاً طويلاً يتجاوز ركبتيه وله جيبان واسعان. كان الرجل اجتماعياً

ويسعى بشكل دؤوب لحل الخلافات حين تحصل؛ لذا كان كثير التنقل في زوايا القسم بخطوات سريعة في الممر رواحاً ومجيئاً بين أطراف الخصام. كان منظره يبعث على الضحك وهو يغطس كفيه في جيوب معطفه العميقة ويسير بهمة عالية ونشاط كأنه عائد من صفقة عقدها للتو في مقهى يرتاده كبار التجار.

بالرغم من وجود حرفيين مهرة بعدد وافر، إلا أنهم عجزوا عن صنع ملابس داخلية، فقد استعصى عليهم إيجاد أي بديل للنسيج القطني، ولم تسعفهم كل خبرتهم وبراعة مهارتهم في حل معضلته، لذا كانت الأغلبية الساحقة لا ترتدي أي قطعة داخلية سوى من كان يحتفظ بواحدة جاءت معه من عالم ما بعد الأسوار وظلت حبيسة مع صاحبها. غياب الملابس الداخلية كان سبباً مهماً في عدم الإحساس بالدفء، لأن الأردية كانت فضفاضة، يجد الهواء البارد فيها ملعباً كبيراً وساحة رحبة يلهو فيها ويمرح، يقرص العظام ويوخز العضلات الضامرة ويجعد الجلود المتيبسة.

22

أين ذهبت قوتي وعضلاتي، عبارة كان يرددها سجين شغوف بممارسة رياضة الألعاب القتالية، وهو يقوم بحركات رياضية صباحاً وفي بعض الأحيان مساءً وسط حشد مزدحم من أجساد مستلقية في الممر الضيق. كنت والآخرون ننظر إليه باستهزاء ونسمعه يردد لازمته بروتين يومي يبعث على السخرية، لأنه واحد من مجموعة لم تدرك بعد إن الماضي قد انقضى ولم تبق منه سوى عبرٍ وذكريات. مجموعة ظلت تعيش الحاضر بعقلية أحداث مضت وتواصل رفض حقيقة راسخة منذ الأزل، إن العالم يتغير ولا يوجد نهر يُسْتحم فيه مرتين. عقلية تمسكت بأشياءٍ بلاها الزمن، وتعطيها خلوداً زائفاً. معتقداتهم تشبه حلم مصري قديم بعودة مومياء مع كنوزها لتعاود الجلوس على عرش تنازعه الورثة والأعداء من بعده ولم يفضل منه شيء. مُلْكٌ أفضل ما فيه إنه يصلح لأن يكون قطعة أثرية يتفرج عليها فضوليون في متحفٍ للأشياء العريقة.

هذا وآخرون مثله كانوا يترنحون من صدمات واقع يـرطم أحلامـاً بعثرهـا الزمـان فـي أدارج عاصـفة هوجـاء ابتلعتها إلى هـذا النزل المظلم في العالم السفلي. كلما كانت الأيام تواصل سيرها، كان توازنهم يختل أكثر كما يتصلب عنادهم في مواصلة البقاء خارج الواقع. تصلبٌ لم يجد عقلهم معه من حل لهذه المعضلة المزمنة بالألم، إلّا بـأن يعلـن استراحته وتقاعـده عـن العمـل ويتـركهم لفوضى مـن خيالات تسرح بهـم وأفكـار مبعثرة تشظي أفعالهم بلا عقد جامع. بعضهم بلغ به الحال أن يؤذي نفسه وآخر يقوم بأفعال غريبة مضحكة، فيما آخرون يتكورون على أنفسهم يحيطونها بهالة كبيرة من كآبة سوداء لا يخترقها شيء، ويسير رويداً رويداً لكن حثيثاً نحو جنون تام يزيد مع الأيام من يضمهم إلى حضيرته.

الأحـزان صـنعت للعقـلاء لا المجـانين، ولكـن إذا انغمس فيها عاقل بشكل مفرط فإنه حتماً سوف يتحول إلى مجنون. مع ذلك لم ألمْ أحداً منهم، أو بالأحرى كنت ألتمس لهم عذراً لأن ما جرى لبعضهم كان أفضل حل يجده، مع أنه كان حلاً سيئاً، ليتخلص من وقع ذكريـات متعبـة تسـحقه بألمهـا الفظيـع. آلام فظيعـة لا يندهش معها المرء، إذا رأى من حين لأخر شخص يتكلم

مع نفسه، فالكثير من الحس والانفعال يمكن أن يؤدي إلى الجنون في واقع كانت المصائب فيه هي القاعدة العامة والراحة هي الاستثناء النادر.

كثير كان يحمل من سمات النبل والفروسية، وهي ذاته التي أفقدته عقله، وقطعت ما بينه وبين الحياة الواقعية. ربما بلغ به النبل حد الهوس فجعله يفكر في ان يعيد للحياة ميزانها المختل، فيتقمص دور فارس يخرج كي ينشر العدل وينصر الضعفاء، ويدافع عن الأرامل واليتامى والمساكين. ثم يجد نفسه وحيداً يحارب شياطين بأذرع هائلة ترفعه من أحلامه وترطمه بأرض واقعه لا ترض عظامه وحسب، بل تحطم أحلامه، ليكتشف متأخراً أنه كان يسير في طريق الأوهام، وأنه لم يكسب من حياته سوى الخسارات المتتابعة.

مع بواكير دخولي السجن عرفت أنه عليّ ألّا أستحضر الماضي وأن أُفرغ ذهني منه. الشاعر التركي التقدمي ناظم حكمت كان شخصاً أثيراً عندي، وكنت أقرأ له بانتظام إنما تعلق قلبي بقصيدة له أسمها (إلى مرشحي السجون) فيها نصائح غالية ومعانٍ نفيسة مثل الدرر الكامنة في أعماق البحار الواسعة. يوصي في تلك الأبيات المرشحين للسجون من أمثالي حين تبدأ رحلتنا، ألّا نفكر

بالنســـاء ولا بالأشــياء الرقيقــة، وأن نفكــر بالصــخور وبالأشياء القاسية حتى لا يصيبنا وهن ولا يعترينا ضعف. بكلمة أخرى إنه ما أن تقع الواقعة فعلينا أن نتوقف عن الرغبة؛ لذا أوصدت كل الأبواب على ذكرياتي، وبنيت بينها وبين العالم الخارجي حاجزاً لا تقوى على اختراقه. روضت نفسي على ألا أستسلم لتفكير سوف يُفْرِح من يمني نفسه بهزيمتي، وكنت أذكرها على الدوام بإني في معركة، وفي سوح القتال عليّ أن أغيظ أعدائي لا أن أقدم لهم مناسبة للفرح.

قطعت علاقتي ليس مع الماضي وحسب، بل مع عالم خارج الأسوار كله. السجن هو الكون الوحيد المأهول بالبشر، وما خلاه فهو نجمٌ بعيد مأهول يسبح في فضاءات بعيدة لا تبلغه إلّا روايات الخيال العلمي. إذا حامت صور منه حولي في يقظة أو منام، كنت أزجرها بعيداً عني وأنصحها بعدم التكرار، فلست أنا الشخص المعني بها كمن ينكر علاقته بتهمة. حتى أحلامي اختفت منها هذه الذكريات وخمدت شعلة التعلق بالماضي والحنين إليه. تعلمت أن أعيش الواقع وأدع الماضي يتلاشى ويغرق، لأنه اختفى من صفحة الزمان ويجدر به أن يغرق في طي النسيان. من يعش في الماضي سوف

يورم رأسه بالأوهام، وسوف يأتي يوم لا يجد سبيلاً كي يتخلص من هذا الورم المؤلم إلا أن يهشم رأسه بنفسه بطرقه بجدران الواقع وصخور الحقيقة الصلبة، ولكنه لن يقدر على الخلاص منه فقد فات الأوان وما تبقى عليه إلّا أن يذهب وأوهامه إلى اضمحلال وتلاش في هوة العدم حيث تسمق منازل الفناء.

23

الزنزانة علبة صغيرة، وما خلف جدرانها كون شاسع لا حد لأبعاده، قلت لنفسي ذلك يوماً حينما اقتادنا عناصر الأمن إلى باحة رحبة في السجن حيث تقف سيارة فحص الأشعة السينية لفرز حالات الإصابة بمرض السل الرئوي المنتشر بين السجناء كأنه نزلة برد. كان ذلك في يوم ربيعي ذي طقس مشمس راح بصري يبحر بسحره في السماء الشاسعة بمنظر غريب لم تألفه عيناي منذ سنوات. يا للهول، أحقاً هذا العالم واسع لهذا الحد؟ أو كل هذا الوسع وترامي الأطراف لم يقنع الناس ليتقاسموه ويعيشوا فيه بسلام؟ أحقاً لا يكفي هذا الرحب ليعيش كل واحد منا في بقعة منه يفعل ما يشاء فعله دون أن يزعج الآخرين؟ أليست غاية في الحمق أن يتحول هذا المسرح الكبير، إلى مزيج من مشاهد متلاحقة من البؤس، بدلاً أن يكون مكاناً للمرح والنزهة في ربوعه الجميلة. عجباً على الإنسان بدلاً من أن يتعقب الفرح والمتعة في أرجاء هذا الكون الشاسع الزاخر بهما،

ويشاركهما مع أخيه الإنسان يتولد عنده إصرار على نشر الألم وصنوف العذاب النفسي والبدني. لماذا أغلب الناس ينساقون وراءه هذه الحماقة دون أدنى تبصّر ومراجعة مع أنها تقع منذ الأزل؟ وأي خطيئة كبرى يقترفها الذين ينظرون إلى نظرائهم في هذا العالم نظرة توجّس وتشكّك، فيحيلونه إلى قطعة من الجحيم! ومن ثم لا يعود بعدها لهم من شغل يشغلهم سوى توفير حصن يقيهم لهيب نيرانهم التي أشعلوها بأنفسهم؟ من كان هكذا دينه وديْدنه، أليس بأحمق غرّ؟ ألم يكن أجدى للإنسان لو كرّس طاقاته الخلابة لتجنّب الشرور والآلام بدلاً من مطاردة سراب لن يجد عنده في كل مرة غير الإحباط والخيبة؟

أي تبلد بهيمي يغزو النفوس وأي آفة تجعلها ترتكب كل هذه الفظائع؟ وأي شيطان هذا الذي يظهر بعد الجرائم الرهيبة بلا مبالاة، بل بمظهر الرصانة والوقار يفخر بها ويوهم غيره، بل نفسه بأنه أحسن صنعاً؟ لا يبرر آثامها وحسب، بل يصنفها في خانة وصايا الرب العشر. هل من يفعل كل هذا سليم النية وسوي الخلقة؟ لو كان كذلك فحتماً إن الكوابيس تقض مضجعه الآن، وتقلبه في فراشه أرقاً سهداً في كل ليلة يفكر في ضحاياه التي نبذها

فـي قعـر جـب عميـق مظلـم أو تحـت ثـرى صـحراء لا جغرافيـة لهـا؟ لكنـه لـيس كـذلك، فإنـه حـين يـنهض مـن سريره مطلع كـل نهـار يعاود جرائمه كأنها قوتـه اليومي، وكفافه الذي يعيش به.

هل صناعة الألم ترياق بمقدوره أن يشفي صدراً أوغر في كراهية كل ما يمت لنوع الإنسان من صلة، بل لكل ما في الحياة من جمال؟ كلا، إنه لـن يفعل ذلك ولـن يقوى كـل الغـل والبغض أن يُطفـئ جمال الإنسان الرائع. لـيس من شيء في هذا الوجود أجمل من الإنسان، سجد الكون كله لـه وخضعت لـه حتى عناوين الجمال الملائكة ذرية الآلهة. من يأبى هـذه الحقيقة فسوف يبقى طريداً ملعوناً شيطاناً، تَرْجُمه حشود الحب الساعية إلى كعبة الكمال بكل حجر ومدر يقع في كفها.

الحياة لن تتوقف، فما صُنْع الخريف بأوراق الشجر وظنونـه الخاسرة بأنـه قـد بلـغ عتبـة النصـر حـين يحيلهـا جرداء من الورق، إلّا آمال خائبـة وأماني عاطلـة. حـين يـأتي الربيـع سـوف تـزداد قـوة، وتسـمق أكثـر، ويواصـل علوهـا ارتفاعـاً معانقـاً السـحب. السـماء تـزين أغصـانها بأوراق أشـد خضـرة تـدخل الفـرح والحبـور في قلـب مـن يرنو ببصره نحوها، وتُظلّل العابر والمقيم بأفيائها وتمنح

الجميع بلا تمييز ثمراً يانعاً يجري فيهم الحياة. هكذا هي دماء الشهداء وآلام المعذبين مثل عذابات سنديانة عصية تحطم كل فؤوس الأشقياء التي تريد النيل من بقائها السرمدي. ما أجمل الإنسان حين يكون إنساناً، فيُعْجِز الطغاة رغم العذابات والآلام، ولم تُجْدِهم شيئاً ماكينة القمع الهائلة في أن يجعلوا من السجون مقبرة للأحرار، كما كانوا يحلمون ويمنون أنفسهم. لم يقدروا على فعل ذلك أبداً ولن يقدروا، فالسجون مصانع يخرج منها ثوارٌ جدد، ومدرسةً لعلوم كثيرة لم يستطع الظفر بها جمع غفير من الناس، وان ظنوا أنهم يعيشون أحراراً خارج القضبان.

24

بمجرد أن تم التخلص من الخونة الوشاة، انشغل الجميع بعملية تثقيف واسعة، تصدى لها سجناء يملكون وعياً وفهماً وملكة تفكير وسعة أفق. صارت لهؤلاء السجناء مكانة اجتماعية لهذه السمات، التي تحلوا بها خصوصاً إنها كانت تنعكس على سلوكهم الشخصي وحركتهم اليومية. هذه الوجاهة الاجتماعية لم تعطَ لكل من كان ذلق اللسان أو حفظ معلومة، بل لمن كان يقوم بدوره الرسالي، ويشعر بالمسؤولية تجاه مجتمعه، وكان على أهبة الاستعداد للتضحية. كانوا مثقفين حقيقيين فكما تبنوا كشف الحقائق، فقد كانوا شجعان في إفشائها وفي الدفاع عنها حين ينكص الآخرون.

كانت تعقد حلقات صغيرة وأحياناً بشكل فردي للتثقيف في مواضيع شتى، وفي مناسبات معينة كان يجتمع سكان الزنزانة لسماع محاضرة عامة أو المشاركة في برنامج احتفالي كان يسوده مناخ ثوري في عملية. تصدح الحناجر في الاحتفالات بأناشيد تحث على الصبر

والثبات، وتحرض على مواصلة الثورة، وعلى التحدي وتبشر بنصر قريب بالإشارة إلى بوارق أمل بنهاية حكم الظلم وسلطة القمع.

كثيرٌ ممن لم يكن له شغلٌ بالمعارضة والسياسة بدأ يتعلم مفرداتها وينخرط في أجوائها، وبالطبع لا يمكن القول إن الكل كان مهتماً بذلك فبعض ممن وصل بقطار المصادفة لم تغيره الأحداث، وبعض آخر أصابه إرهاق وملل وتعب من المقاومة الصعبة والسباحة ضد تيارٍ جارف واستسلم، فصار سطحياً في مطالبه، تلاطم به أمواج الحيرة والتوجس، فيما تنشب مخالب الموت بجذوة الحياة لتنتزعه إلى اتجاه معاكس يحسبها تستبقيه على الحياة وهي تغرس الخنجر تلو الآخر فيه ليغدو كأنه جثة تأكل وتمشي في زقاق مدفنها الأخير.

وبرغم ذلك فإن تينك الفئتين لم تشكلا عائقاً أمام عملية التثقيف، بل أصبح السجن مدرسة حقيقية لتبادل المعلومات بطريقة عمل الأواني المستطرقة، فكلٌ يقدم ما عنده من خلاصة مطالعاته وخبرته إلى الآخرين. وبوجود عدد لا بأس به ممن يحمل ثروة معرفية وخبرة سياسية، تحول تبادل المخزون الثقافي إلى صناعة فكرية، إذ صار هناك الكثير ممن بات يستثمر وقته في التحليل والتفكير

العميق ليخرج برؤى فكرية جديدة. وانهمك الشعراء وما أكثرهم في نظم القصائد في مواضيع شتى أغلبها يشع ثورية وتحدياً، يشجعهم على نظم المزيد منها منشدون يحولون تلك القصائد إلى أناشيد تلهب الحماس وتشد أزر الجمع في مواجهة المحنة القاسية وظرفها الرهيب.

بين هذا الجمع الكبير من السجناء لم يكن إلّا عدد قليل جداً بأخلاق سيئة وطباع رديئة على استعداد لارتكاب أفعال رذيلة، لأن الأغلبية الساحقة وإنْ لم تكن غير منخرطة بتنظيمات سياسية بشكل حقيقي، فإنها أيضاً لم تعتقل بسبب ارتكاب أفعال سيئة كما هو الحال في باقي السجون، بل جرى اعتقال كثير منهم لشبهات سياسية تحوم حولهم، أو لأنهم مرتبطون بعلاقات خاصة مع شباب ثوري. إلى جانب هذا كان هناك عدد كبير من السجناء ممن يلتزم بالفعل والقول بأخلاقيات الثوار الرومانسية، من صدقٍ ووفاءٍ، أمانةٍ ونبل، والتزامٍ شديد بالسلوك القويم، بل مضافاً لذلك يحملون صفة غاية في الأهمية وهي الريادة والقدرة على توجيه أي جمع يحلون فيه. خصلة باهرة مكنتهم من فرض نهج أخلاقي جميل في السجن، نال أعجاب السجناء والتزموا بتلك الأخلاق في تعاملاتهم. وتأكدت بذلك مقولة "متى ما صلح القائد

صلحت الجموع" التي تتبعه في حركتها، وتختفي عيوبها الداخلية الصغيرة على غزارتها بصلاح قائدها وصواب نهج مسيرتها.

كما كان السجن يعج برجال مثقفين وحكماء، فإنه لم يخل أيضاً من قدوات عليا في الأمانة والإخلاص، لذلك ارتقت الأمانة والصدق إلى درجة مثالية بين السجناء. بسبب الزحام الخانق وتشابه الأشياء المستعملة كان يحصل في كثير من المرات أن يتوهم المرء في ملكية حاجة ما، ويعتريه الشك بعائدتيها، فيتركها الجميع زهداً وتعافها أنفسهم مع حاجتهم الماسة لها. تتحول القضية أحياناً إلى شبه معضلة، إذ تصبح هذ الأشياء كدساً متراكماً، وتأخذ حيزاً لا بأس به في الزنزانة الضيقة. غالباً كانت تحل المشكلة بطلب إذن جماعي بحق التصرف يمنح إلى مراقب الغرفة أو إلى شخص محل اعتماد في الأمور الإدارية ليتولى توزيعها بما يقدّر ويرى.

حينما أتيحت الزيارات لاحقاً، لجأ بعض السجناء ممن كانت أُسرهم تعاني ضائقةً مادية وتشكوا من قلة اليد إلى بيع بضائع كانت تصلهم من السجائر وأشياء بسيطة أخرى، لرفع الحرج عن عوائلهم وللتخفيف من عبء ناءت به منذ أن غيب معيلهم. في أيام الزيارات كان

السجين ينشغل عن بضاعته، لكنه لا يتوقف عن بيعها، فيضعها مفروشة على الأرض. يأتي الزوار يتبضعون منها، يأخذون ما يرغبون ويضعون مقابلها عوضاً مادياً بلا كاميرات مراقبة ولا حرس يقفون عند بوابات المحال يراقبون المتبضعين، ولا من محاسب ولا رقيب إلّا أخلاق آمن الجميع بجدواها وتواصوا عليها فصارت خيمة يستظل الجميع بأمانها وسلمها. في مرة بينما أحد أفراد الأمن يتجول أثناء وقت الزيارة رأى عمليات البيع والشراء تسير بهذه الطريقة. لم يفهم ماذا يحدث بالضبط، ولما شُرح له الموقف لم يصدق إذنه وكاد أن يكذب عيناه. خرج يقارن بين هذا العالم الغريب المخفي عن العيون وبين عالم وحشي يعيشه. وقف مذهولاً وهو يرى حياة أخرى جميلة لم يعرف الطريق إليها أبداً. كانت عيناه تحكي ألماً وهو يردد: هل هؤلاء أنبياء أم إن هذا هو الفردوس؟

25

تطور الأمر إلى أكثر من التثقيف الجماعي أو الفردي إلى درجة، إن البعض اندفع إلى محاولة بناء تنظيم سري داخل السجن. كانت عملية يشوبها حماس زائد وتفتقر إلى الحكمة رغم سلامة نيات من انخرط بها. خطوة قام بها متحمسون وانضم إليهم شباب حديثو السن ولم يحسبوا جميعاً جدواها ومعطياتها، وعدم تأثيرها المطلق في زعزعة النظام كما هو هدف العمل التنظيمي لإحلال بديل عنه. بخلاف خطورتها الأمنية البالغة فإنها كانت تتحرك بمزاج أشخاص صنعوا هذا التنظيم بقرار خاص من دون أي ارتباط بأيّ تنظيم سياسي خارج القضبان، مما يعني بكل بساطة أنه مزاج أشخاص ورغبات ذاتية في بناء جسم تنظيمي يتولون هم شخصياً قيادته، وهذه آفة التنظيمات السياسية.

بدأت هذه الخطوة الانفعالية المزاجية تقسم المجتمع المتماسك في جميع الزنزانات، إذ في زنزانة محشوة بعددٍ كبيرٍ من السجناء لم يكن من العسير اكتشاف وجود

علاقة خاصة بين مجموعة معينة منهم، وهم يتكتمون في أحاديثهم على أمر خفي، خصوصاً إن كثيراً كان مدرباً على العمل السري ويلتقط بسهولة هذا النوع من العلاقات. كان سلوكهم يتسم بالانغلاق؛ مما جعل انكشاف أمرهم أكثر سهولة ويسراً. هذا الشرخ الاجتماعي متزامناً مع الرفض من قبل الأغلبية، خصوصاً ممن كانت له ريادة اجتماعية، جعل هذا المشروع في وضع لا يحسد عليه، وأصبح عرضة لانتقاد قاسي خلف عدداً من المتاعب والمشاكل لأصحابه، وخلق جواً من التوتر العام. عدم الاستجابة لرأي الأكثرية والإصرار على أمر خاص لا يختلف كثيراً عن الجهود التثقيفية التي كانت تتم في الجو العام أجهض المشروع نهائياً، إلّا إنه لحسن الحظ تم احتواء هذا التحرك في النهاية بشكل تام. لكن لم يكن ذلك بلا خسائر، بل أخذ وقتاً ليس بالقليل وجهداً غير متواضع من الحوارات المطولة، وبنفس المقدار أحدث انقسامات وشجارات تطور بعضها يا للأسف إلى اعتداءات لفظية وجسدية.

هذه الشجارات كانت ستحصل أيضاً حتى بدون هذه الخطوة السقيمة، إذ إن هناك كثيراً مما يمكن له أن يسبب شجاراً وخصومة بين السجناء، فأجواء الحرمان القاسية

والضغط النفسي كانت تنتظر شرارة لتندلع بسببها حرائق، إلا أنها كانت نيران صغيرة سرعان ما تخمد، لأنها لم تكن سوى محاولة للتنفيس عن توتر وغضب يعتمل داخل النفوس. كانت دوافعها في جميع المرات أسباباً تافهة جداً لكن يمكن تفهمها. مثلاً، أي شخص بعد تناوله الفطور كان مضطراً أن يجلس في طابور طويل مكون من أربعين شخصاً، بل يزيد لقضاء حاجته. لنتخيل كيف ستكون أعصابه حين يحاول جاهداً ألّا يصدر منه ما يعيبه بعد أكثر من ساعة من انتظار ممل، ثم يأتي أحدهم ويحاول بحذلقة ماكرة أن يتخلص من طول الانتظار مدعياً إن لديه مغص أو حاجة مستعجلة. قطعاً سيحدث رد فعل غاضب خصوصاً إن كان متأكداً إن هذا التفافٌ خبيث. وبالتأكيد سوف ينفجر غضباً ويحدث شجار بينهم. يمكن لأيّ أحد أن يعيش في هذه الظروف أن تفسد طباعه وينقلب وحشاً كاسراً، وهذا ما يحصل في السجون حيث تتحول الخصومات الصغيرة إلى معارك دائمة، لكن بين السياسيين كان كل شيء ينتهي سريعاً ويتم التصالح، مما جعل السجن قابلاً للاحتمال رغم كل ما فيه.

كان السجناء يتحينون الفرص للتصالح والتغاضي

أحـدهم عـن الآخـر مـن هـذه الخصـومات الهامشـية، ويسـتغلون المناسـبات والأعيـاد للتصـالح، لأنهـم كـانوا يـرون فـي أنفسـهم إنهـم أصـحاب قضـية أكبـر بكثيـر مـن سفاسف الأمور. حتى أنا لـم يساعدني هـدوء طبعي على تجنب هـذه الشـجارات، بـل تورطـت فيهـا لأكثـر مـن مرة. مـثلاً فـي إحـدى المـرات، كنـت أنـام عنـد جـدار بـه ثقـب صـغير يمكـن مـن خلالـه الاتصـال بزنزانـة مجـاورة، هـذا الثقـب أصـبح محجـاً لكثيـر مـن السـجناء يتوافـدون عليـه للحديث مع سجناء آخرين في زنزانات أخرى. كـان أمـراً مضـجراً فعلاً ومزعجاً ألّا أحظى بالراحة حتى في الشبر الواحـد المخصـص لـي. نعـم إنـه شـبر واحـد عليـك أن تضطجع به، حتى إنه في يوم صرخ أحدهم:

– يا إلهي! حتى في القبر يعطون شبراً وأربعة أصابع.

نعم، إنه مضجع أضيق من القبر ومع ذلك لا أحظى به، لأنه قرب ثقبٍ صار برجاً للاتصالات. بحقٍ كان أمراً لا يُحتمـل، وفـي مـرةٍ حـان وقـت النـوم وظـلّ أحـدهم يواصـل ثرثرتـه، رجوتـه أن يتـرك المكـان ويـدعني أرتـاح، لكـن فـي كـل مـرة أرجـوه المغـادرة يطلـب بضـع دقـائق إضافية. كنت متعباً كليلاً ضجراً ونفسي متكـدرة ممـا فـاقم عنـائي؛ فنفـد صـبري الـذي لـم يكـن كبيـراً سـاعتئذ حينمـا

غلبني شعور بإنه يزدريني أو لا يعيرني اهتماماً، فصرخت بوجهه وتبادلنا الشجار بكلمات غضب. استغرق الأمر عدة أيام من إشاحة الوجه بيننا لنستعيد العلاقة الودية من جديد وكأن شيئاً لم يكن.

26

الاتصال من خلال ثقب الحائط كانت أبسط الطرق وأكثرها بدائية في منظومة الاتصالات التي تعامل بها السجناء، لأنها لم تكن سوى كلام مسموع ينتقل من فمٍ إلى أُذن، تارة تضع فمك على الثقب وأخرى أذنك لتسمع رد صاحبك. الثقب لم يكن طبيعياً في أغلب الأحيان، بل تصنعه يد تجد مكاناً رخواً في حائط فاصل بين زنزانتين، وحينها يبدأ حفر دقيق عند نقطة التقاء الآجر الإسمنتي لأحداث ممر صغير يمكن أن تعبر منه نملة. هذا المقدار الضئيل يكفي لمرور الصوت وتبادل الأخبار والنميمة أحياناً، إلّا أنها لم تكن الطريقة الوحيدة للتواصل، فقد كان هناك أشخاص يبرعون في التعامل بلغة المورس المعروفة عند العسكريين. يتبادلون الحديث والأخبار بواسطة هذه اللغة وبسرعة فائقة. كنت أحفظ شفرتها جيداً، إلّا إني لم أكن سريعاً بما فيه الكفاية في استعمالها؛ لذا كنت أُفضل طريقة أخرى في التواصل كنت أجيدها وأستخدمها كثيراً للتواصل، وهي الكتابة في الهواء. كانت طريقة شائعة بين السجناء ومن إبداعاتهم

الخاصة، لأني لم أرَ لها مثيلاً في أي مكان آخر. تعتمد أصول هذه الطريقة على رسم الكلمة في الفضاء بطريقة تقطيع الحروف، وعلى الشخص المقابل جمع هذه الحروف التي تشكل أجزاء الكلمة وإدراك معناها ودلالتها. لم تكن وسائل التواصل هذه مخصصة لتبادل التحايا والسلام أو الثرثرة وحسب، بل كانت أيضاً قناةً للتزود الفكري والتعلم والتدريس، وإن كانت تسرق وقتاً مديداً وجهداً ضخماً، لكن لم يكن هذا عائقاً مهماً، لأنه لا شيء عندنا أكثر من الزمن الذي لم يكن ينقضي أبداً.

كان السجناء يلجؤون إلى طريقة أخرى في تبادل الدروس عبر الزنزانات لأجل التواصل الثقافي والفكري، فقد كانوا يتبادلون المخطوطات فيما بينهم. ولما كان القرطاس والدواة من المحظورات، كان من اللازم إيجاد بديل عنهما. بعد ست سنوات بدأ الوضع الغذائي بالتحسن قليلاً، وصار يصل إلينا بين حين وآخر كأس صغير من اللبن، يتقاسمه أربعة أو خمسة أشخاص، لكن غطاءه العلوي وهو من ورق السيلفون كان حصراً من نصيب المهتمين بالأمور الثقافية إن كانت فكراً أو أدباً. وبالاستعانة بعظام دقيقة من الدجاج الذي يستعمل كدواة تحول السلوفان إلى قرطاس يجري الخط عليه بطريقة

الحفر الدقيق الناعم، كل ما يراد تسطيره في أي موضوع سياسياً كان أو دينياً أو ثقافياً بشكل عام من شعر وأدب وغيره صار يدون على هذا القرطاس. ولم يكن هذا النوع الوحيد من القرطاس، ففي كل شهر تقريباً كانت تصل إلينا في زنزانة الحجر الصحي علب حليب توزع على المرضى. كان الحليب يصل معلباً في كارتون مغلف من الداخل بسلوفان سميك، وكل علبة تحوي لتراً من الحليب السائل مما جعل القطعة كبيرة جداً تكفي لتدوين مقالة طويلة، وباستخدام عظام الدجاج كانت الكتابة عليه أسهل وأسرع ولا يعاني من تشققات كما هو حال سلوفان اللبن.

استخدمت هذا الورق كثيراً في الإعداد لمحاضرات كنت ألقيها في مناسبات معينة، أو لتدوين أفكار أظفر بها في خلواتي، خصوصاً حينما يهجع الكل إلى النوم. حرصت على استغلال سكون الليل لأسرح بعيداً في تأملات عميقة أوصلني بعضها إلى اكتشافات فكرية جوهرية أسست عندي لمبان فكرية جديدة. هذه الاستنتاجات طورت من فهمي لأشياء كثيرة، وربما أيضاً سببت لي مشاكل ليست قليلة في حينها، لنقصٍ في خبرتي ولبعض الحماس غير المبرر مني للجهر بآراء

صريحة مقابل بعض محدودي الفهم والمتعصبين، وأشخاص منزعجين جداً من تسيد المشهد الثقافي من قبل مجموعة معينة كنت أحد أفرادها.

هذا الوضع المميز جعلنا في مركز اجتماعي حسن. بعضٌ قليلٌ من السجناء كان لا يروق له ذلك واشتعلت الغيرة في صدره واضطرم الحسد في نفسه المضطربة أصلاً، فبدأ يختلق الأعذار وينتحل الحجج للتوهين من آخرين. الغريب إنه حتى في هذه الأوضاع المزرية من الحرمان والفقر المدقع، كان التنافس على المواقع والحسد متوفراً بصورة ملحوظة مع إنه لا يوجد شيء يستحق الاهتمام فضلاً عن القتال عليه.

في إحدى المرات كنت أجلس متكئاً على حائط بينما تجتمع في إحدى زوايا الزنزانة مجموعة من الأشخاص لحل خلاف نشب بينهم. ولسبب ما، لم أقدر على ملاحظة المشهد إلّا من خلال النصف السفلي لأجسادهم، سقط نظري على أقدامهم وهم يهمون بالجلوس فرأيت أرجلهم الحافية. مشهدٌ غريب، إنهم لا يملكون لا جورباً ولا نعلاً، ولو خلعوا أسمالهم البالية لكُشِفَتْ عورتهم في الحال، لأنهم لا يملكون سروالاً داخلياً. هل هناك من شيء فعلاً يستحق كل هذا التنافس

والخصومات؟ هل يوجد شيء، ليس في هذا المكان المقفر من كل ما يمت للدنيا وحسب، بل في كل هذه الدنيا يستوجب التنازع لأجله إلى حد تصل الأمور فيه إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء؟ ما أغرب نفس المرء حين توهمه بمغريات زائفة وهي في حقيقتها أوهام، أو كادت أن تكون عدماً في أكثر المرات. النوازع البشرية لا تتغير بتغير الظروف سواء كانت خشنة أو ناعمة، قاسية أو رقيقة. غرائز تبقى كما هي في كل الأحوال وكل ما تفعله تبدلات الظروف في انعطافاتها حين تدهم المرء على حين غرة، إنها تعطي دروساً مجانية لمن يريد أن يهتدي بنورها. في هذه المنعطفات الحادة تتعرى الأشياء من تراكمات الزيف وتتبدى ماهية الحياة مجردة من أي زخرف وزينة، وتسقط الهالة الساحرة الغامضة التي طالما خدعت الأبصار وشوشت الأفكار، وذهبت بلب كل تواقٍ نهم يشتهي متعاً زائلة بلا تدبر ولا حسبان لعواقب وبيلة. أما مَنْ أخذ الدرس فيركلها هي وكل الأوهام، ويقي نفسه عواقب تنزل به الضرر عاجلاً أو آجلاً.

تبادل المخطوطات يجري بسريةٍ بالغةٍ، وبتحفظٌ كبير، لأن السجن معرض لحملة تفتيشية في أي لحظة. كان عناصر الخدمات الصالحين يقومون بهذه المهمة بحذرٍ

كبير. في مرات أخرى كثيرة كانت تُنْقَل داخل حاجيات أخرى وقد دُسّت في مكان سري، إلّا إن نقلها من قسم إلى آخر كانت مهمة عسيرة جداً وتتطلب مهارةً فائقة. يُصنع حبل وفي آخره ما يشبه صنارة صيد ويرمى بأقصى ما يمكن من فتحة البلوك الوحيدة المسماة شباكاً تسامحاً. ما يراد نقله يكون في اغلب الأحيان من الأشياء المهمة التي تجمع لمدة طويلة من الزمن، وتنقل إلى قسم آخر لحاجة ماسة إليه، وطبعاً لا تخلو البضاعة من أوراق ومواد ثقافية في أغلب المرات. كانت الساحة التي يزيد عرضها عن عشرين متراً مكباً كبيراً للنفايات التي تشكل عقبة أمام انسيابية سحب يبدأ حينما يرمي طرف بصنارته لمرات ومرات عسى أن تلتقط حبلاً رماه صاحبه من الجهة المقابلة. عندما تعلق الصنارتان، يبدأ سحب الحبل بحذرٍ بعد أن يربط به كيس البضاعة المهربة، في عملية تستغرق ساعات أحياناً، ليس لأنها تتم تحت جنح الظلام وحسب، بل لأن في مرات كثيرة كانت الصنارة تفلت بعد أن تعلق في كومة نفاية كبيرة يصعب تجاوزها، مما يضطر الطرفان إلى سحب حبليهما ومعاودة رميهما من جديد حتى تعلق مرة أخرى ليستأنفا محاولتهما من جديد. يظل الطرفان في توترٍ وترقب طوال الوقت خشية أن تدهمهم

مـرور دوريـة ليليـة يوقـف عمليـة التهريـب فـي اسـتراحة إجبارية. عملية كان يمكن أن تستغرق الليل بأسره، ولابد أن تكلل بالنجاح، لأن الفشل له تكلفة باهظة.

27

رغم تخلصنا من الخونة، وافتتاح قسم جديد قلل الزحام نسبياً صار العدد معه في كل زنزانة بحدود خمسة وثلاثين شخصاً، إلّا إن الظروف الصحية واصلت انحدارها الحثيث. لم تتوقف عناصر الأمن في معاملتها القائمة على إذلال واحتقار السجناء وإنزال عقوبات قاسية بهم لأسباب بالغة في التفاهة. مع مرور الأيام كانت الأمور تسوء أكثر ويتفاقم الكرب، وأيضاً يحتد الغضب والحنق عند السجناء. بين فترة وأخرى ليست متباعدة، كان سجين يموت بسبب هذه الظروف المريعة وكثير يصاب بنوبات من إغماء أو يضحى بحال يُشعر معها إنهم في سبيل التلاشي وهجر الدنيا كلية. وبالفعل فارقنا أكثر من واحد منهم. أمام ناظري مباشرة شهدت ترجلهم من الدنيا وعروجهم إلى سماء طالما انتظرنا عدلها.

شابان شهدت فقد حياتيهما جراء عبث المرض بهما بنحو مريع أمامي، وسمعت كيف تخمد الأنفاس في

مشهد مفزع. يجاهد صبي في صراع مع مجهول لسحب أنفاسه وذاك الغريب من عالم الميتافيزيقيا يجرها إليه، كأنه أتى لإنقاذه من دنيا أساءت معاملته بما فيه الكفاية. يبحلق بعينين لا تتوقفان عن الدوران بوجه خال من التعابير، كأنه والموت يحدقان ببعض ينتظران من منهما سيبتلع الآخر. ازرقت قدماه ثم رفع ساقيه وهما ترتجفان. ثم هوتا مع أحلامه بالبقاء في الدنيا وتوقف عن المقاومة. خمدت ضراوة المعركة مع تلاشي آخر أنفاسه، فلم يعد يرغب في الحياة فانتصر عليها وعلى الموت أيضاً، لأنه لم يعد يخاف منه. سدلت ستارة من الحزن والوجوم على الحشد المكتظ في الزنزانة والجسد الغض يسحبه أفراد الأمن في بطانية سوداء إلى غرفة مجاورة.

نتلصص من ثقب الباب على جسد فائق بشير المطروح منبوذاً مهجوراً بلا احترام، فيما قط سمين يدور حوله، ثم يتراجع ويقعد بعيداً عنه، كأنه يقول لا تخف يا عزيزي أنا لست كأبناء جنسك الذين رموك هنا. إنهم جميعاً لا يساوون خنصر يدك، أنت أشرف منهم قاطبةً، أنت تفوقهم نُبلاً وطيباً. هؤلاء لا يستحقون أن يمسحوا اللعاب الذي سقط من فمك على الأرض. قم يا صديقي إلى أرض لك فيها العزة والأنفة، إلى أرض تحفظ

كبريائك وتقلب عليهم كل شيء رأساً على عقب.

غضب يتزايد ككرة ثلج تواصل الانحدار غدا معه أغلب السجناء غير مبالين بالحياة. كثيرٌ منهم كان جسوراً شجاعاً ومستعداً للمواجهة بلا أدنى تردد وبلا حاجة لأن يغضب أصلاً من سوء المعاملة فكيف به معها. حاول السجناء في كل مناسبة أن يتكتموا على آلامهم، ويبدون أمام الأمن جلداً ومقاومة. شاب تلقى صنوف العذاب مع آخرين، وحين انتهى التعذيب طُلب منهم أن يهرولوا مسرعين إلى زنزانتهم، إلا أنه قام بهدوء ووقار. عاجله رجل الأمن بضربات على ظهره لاستعجاله، فلم يأبه لها وظل يمشي كأن سياطهم ذباب يطنطن عند أذنيه لا يستحق منه سوى الهش بيديه. واصل سيره إلى الزنزانة دون أن يغير من نسق خطواته، ولم يرتبك في أي واحدة منها ولم يستعجلها ولا حتى بنصف خطوة.

كنّا نمارس لعبة السعادة في رفع المعنويات نقول نحن أفضل من غيرنا ولنرض بما وقع علينا. سلمنا المسألة إلى القدر فالزمان كفيل بحل أعقد المشكلات. لم يكن هذا بدافع اليأس، بل لإعتاقنا من توقعات زائفة وآمال كاذبة تُفضي إلى المرارة. حين تخذلنا الحياة وتسيء لنا الأقدار ونبحث على السعادة ولا نجدها؛

فعلينا أن نصنعها بالصمود. الانهيار سيكون بشعاً، ولو حصل مرة فسوف يتلوه ثانٍ أكثر بشاعة منه، ثمّ يأتي ثالث، وهكذا دواليك حتى نبلغ الجحيم. الضعف تتعدد حلقاته، ولكن لا يمكن توقع محنه الجديدة ونتائجه قطعاً سوف تكون أقبح من سابقاته. بهذه الفلسفة تحصنّا من الوقوع في عذاب الروح، واندفعنا نشد أزر بعضنا بالتكاتف والتواصي.

نقلت إلى زنزانة جديدة بعد انتهاء فترة الحجر الصحي، وهناك اخترعنا يوماً للصبر باقتراح من الراحل حسين جودي. موعده السنوي في اليوم التالي ليوم (تأسيس الجيش العراقي) إذ تتردد قبله إشاعات كثيرة عن صدور قرار حكومي بإلغاء المدة المتبقية من الأحكام الصادرة بحق السجناء ابتهاجاً بذاك اليوم الوطني، وتتكرر كل سنة الأخبار الكاذبة نفسها. كنّا نعلم أنها إشاعات ليس إلّا، ومع ذلك كان البعض يشتد به الشوق والحنين لزوجة تركها أو أطفال خلفهم كاليتامى أو آخر يتوق للعودة إلى عالم بلا أسوار ولا قضبان، ويصيبه وهن وتراخ ويحل به ضعف يزحزح قدميه ويرجرج موقفه. ضعف غريزي طبيعي، فما كنّا سوى بشر يعترينا ما يعتري غيرنا من لحظات انتكاسة وقوة إلّا أنّا كنّا نبغي مطاولة

البغي وهزيمة السيف بالصبر. صار رأينا ان نقيم احتفالاً عاماً جماعياً في هذه المناسبة كل سنة في الموعد ذاته نترنم فيه بأناشيد حماسية، ونلقي قصائد وكلمات تشيع بيننا روح المقاومة والاستخفاف بممارسات الأمن وحربه النفسية، ونتجاوز لحظة الانكسار والضعف بالوثوب خطوة إلى الأمام في استجماع ولملمة قوانا.

من الأشياء الغريبة في السجن هو كثرة الأخبار عن مرسوم رئاسي لإطلاق سراح وشيك. كانت الإشاعات تُروج بفكاهة لأنها تبنى على معطيات وهمية هي للتهريج والمزح أقرب من أي شيء آخر. في إحدى الأمسيات وقف أحدهم وسط الزنزانة وطلب منّا الهدوء وابتسامة عريضة على وجهه والبشرى ترتسم على محياه، وهو يقول:

- عندي خبر مهم!

أنصت له الجميع بخشوع واهتمام كما لو انه كان يتلو قداساً.

- صدر قرار سري جداً من مجلس قيادة الثورة بإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، وقريباً سوف تبدأ إجراءات إطلاق سراحنا، أرجو التكتم على الخبر لأنه وصل عن طريق ثقة وأخشى لو سمع الأمن بانتشار

الخبر يتعرفون على المصدر.

بادره على الفور شاب صغير لم يكن حينها قد أكمل خمس عشرة سنة من عمره بنبرة سخرية واستهزاء.

- واضحٌ جداً إنه سري للغاية، والدليل أنت معنا في هذه الزنزانة المظلمة ووصلك الخبر!

انفجر الحضور ضحكاً، وتذكرت قصة (ملابس الإمبراطور الجديدة) والطفل الذي كشف عري الإمبراطور وزيف المنافقين. مثل هذه الأخبار كانت تشابه وتماثل الأحلام والرؤى التي يتحدث بها بعضهم. كان أحدهم مستودعاً لا ينضب خزينه من أحلام ورؤى لا تنقطع عنه لصالحين وأولياء وأئمة وأنبياء ليس لهم من هم ولا شغل ولا عمل إلّا المرور عليه لينقلوا له نبوءات تبشر بالفرج القريب، لم تتحقق ولا واحدة منها بالطبع لكنه لم ينقطع عن رؤيتهم ولا عن نقلها. لم يكن يستطيع فعل شيء ما، فأصبح لا يصلح لشيء، فاكتفى بالأحلام. صارت حياته كلها ليست إلا حلماً يأبى أن يلامس الواقع يوماً. آخرون كانوا يتحدثون عن نبوءات الأقدمين ويوفقوها مع واقعنا مبشرين بسقوط النظام وخروجنا منتصرين. أكثرها بعثاً للسخرية والازدراء لسخافتها كانت تقول إنه ورد في أخبار صحيحة عن السلف الصالح إن

نهاية فلان (بتأويله صدام) تكون حين يبلغ العراق نهائيات كأس العالم، وكانت النتيجة أن خرج العراق من هذه البطولة بثلاث هزائم متوالية وهزيمة رابعة حلت بصاحب النبوءة.

هذا وذاك صنف يحاول التسلح بقدسية الدين لتمرير أفكاره المعوجة وأمانيه الباطلة متغافلاً عن أن لا شيء يسمو على حكم العقل، ومن لا يصمد أمام امتحان العقل الحر فلن يحظى بالاحترام. يختلط العجز واليأس والجهل في جماعة لا تعايش الواقع، ولا تريد الاعتراف به فضلاً عن محاولة تغييره فتلجأ إلى الخرافة والأساطير لتنعم برفاهية زائفة وتخدع نفسها بسعادة وهمية. حينما تمر ظروف طاحنة في ضراوتها قاسية في وقائعها مريرة في أحداثها، تجد الجهلة والعاجزون يركضون وراء الأحلام والخرافات والأساطير كي يناموا تحت أفيائها، فيتفاقم قبح الواقع عليهم ويغرس مزيداً من حرابه في خواصرهم ونباله في صدورهم ويجثو بثقل بشاعته ويكلفهم سخفهم ثمناً باهظاً، ولا يفْتَأُون يرددون أحلاماً لن تتحقق أبداً ولن يقف على بابهم (غودو)، ولو ناموا الدهر كله في انتظاره.

28

الموت هو الحقيقة الوحيدة التي يؤمن بحتميتها كل البشر، وعلى الرغم من هذا إلّا إن وقوعه يتحول دائماً إلى حدث مزلزل ثقيل الوطأة على كل النفوس، وهذا ما جرى في ذاك اليوم المشهود. يافع بغدادي في ريعان شبابه يدعى "ضياء الكرادي" يحتضر من مرض عضال أصابه في السجن فاقمه نقص التغذية وانعدام الرعاية الصحية بالمطلق. جهد رفاق زنزانته ومعهم شباب الخدمات على الطلب من الضابط المسؤول بتقديم بعض المساعدة له في محنته. استنفدوا كل الحجج والسبل في إقناعه بأنه في وضع صحي مزري وينبغي تقديم العلاج له وإسعافه، إلّا إن رجال الأمن بالغوا في تجاهل الطلبات إذلالاً وإهانة للسجناء. أصروا على عدم تقديم أي عون له، ولو كان يسيراً لجبر الخواطر وليس لإسعافه فقد وصلت حالته إلى نقطة حرجة جداً، وأشك بأن المعجزة كان بوسعها إنقاذه. لم يقبلوا أن يعاين طبيب السجن حاله، ولا أن ينقل لمستوصف السجن ليموت

هناك. وكان هذا خياراً سهلاً وبإمكانهم أن يفعلوه بلا أي تكلفة، لأنه في الأول والآخر سيرقد هناك قبل دفنه.

مستوصف السجن عبارة عن غرفة واحدة بسريرين ويخلو من أي تجهيزات طبية إلّا البدائي جداً منها، وهي ليست أكثر من حقيبة إسعافات أولية وبضع قناني مغذٍ وبعض العقاقير الشائعة من أسبرين وباراسيتامول ومضادات حيوية. مكان لم يكن يصلح لإجراء أي فحص متقدم ولا تقديم أي مساعدة طبية فضلاً عن إجراء أي عملية جراحية. نقلت إليه عند إصابتي بمغص كلوي حاد لاحقاً في ظرف تحسنت فيه المعاملة كثيراً وكانت أوضاع السجن قد تغيرت بشكل حاد، ومع ذلك لم يستطيعوا تقديم أي مساعدة حقيقية لي سوى مسكنات لم تساعدني كثيراً.

تفاقم وضع الشاب المحتضر، وبدأت المخاوف الحقيقية تحوم فوق رؤوسنا من هبوط طائر الموت علينا من جديد، حينئذ اتصل أحد أفراد الخدمات بالأمن من خلال جهاز اتصال داخلي قائلاً له:

- إنه يحتضر ويكاد يموت.

رد عليه أحد عناصر الأمن عليهم بوقاحة وصلافة واستهتار:

- إذا مات لفه في بطانية وارمه خارج الزنزانة.

العبارة المتهتكة سمعها عدد كبير جداً من السجناء مباشرة، لأنه كان يتكلم عبر سماعة جهاز محاكاة داخلي. كانت كلمات موجعة مؤلمة لها وقع قاس في نفس كل من سمعها، لما فيها من استهانة بالغة وازدراء. تردد صداها في الزنزانات بعد أن تناقلتها الألسن. صارت نهاية ضياء عند كل واحد منهم أنموذجاً مثالياً لنهايتهم، وإنهم سيموتون جميعاً بهذه الطريقة، ويرمون مثل جيفة على قارعة الطريق لا يعبأ أحد لهم، ولن يحظوا حتى بمدفن لائق يستريحون فيه بسلام بعد رحلة الحياة المضنية بعذاباتها وآلامها. وقبل أن يمر وقت لتجرع هذه الإهانة، وإذا بالخبر الصاعق ينزل ليدخل القسم بأسره في صمت رهيب، ويخيم عليه حزن عميق، ويغلي غضب عظيم في الصدور.

لقد مات!

الموت بوقعه الزلزلة حادث مج لا تستسيغه النفوس فكيف به وقد تزامن مع هذه الإهانة والاستخفاف. أصاب الذهول عقول الجميع، وبلغ الغضب أوجه، وبدأ يفور في الصدور ينشد منفذاً يخرج منه، وزاد من غليانه الجسد المسجى أمامهم بلا حراك. عند آخر الليل دخل

عناصر من الأمن لإخراجه ملفوفاً ببطانية كما وعدوا من قبل، فيما كل شيء كان ينذر بانفجار عظيم. السجناء كلهم مستيقظون مترقبون، وهمهمة احتجاج خافتة تسري مثل ريح ناعمة تسبق إعصاراً. ما أن فتح باب الزنزانة لسحب جثمانه، وإذا بصرخة احتجاج هادرة تنطلق من زنزانة ما مثل بركان يقذف أول حممه. تداعى لها السجن بأسره منفجراً بهتافات احتجاج مدوية مثل سيل جارف لا يتوقف ولا يخبو، بل يزداد مضياً في جريانه وتدفقاً كلما سار إلى الأمام. ذُهِلَ رجال الأمن من هول الموقف وأسرعوا راكضين مع الجثمان مغلقين باب الزنزانة وباب القسم الخارجي على عجلٍ، وهم يرتجفون من شدة الفزع. تظاهرة احتجاجية في جمهورية الخوف والقمع الرهيب، من يصدق هذا؟

حدثَ وقعٌ عجيب لهذا الاحتجاج، إذ إنه وقع في آخر الليل مع إشراقة الفجر الأولى حيث يخيم الهدوء. صرخات مئات السجناء بأعلى أصواتهم مزقت ليل السجن وستار الخوف، وطلعت مع الفجر في روح كل نزلاء سجن (أبو غريب). تظاهرة تحد، كشفت عن ثائرٍ أشوس قابع وراء القضبان مقدام جسور لا تحجزه القيود ولا السلاسل. هنا يسكن الذين لم ترهبهم سنوات

الإخفاء القسري، والذين لم تنل المعاملة الوحشية من عزيمتهم الجبارة، بل يواصلون تحدي أعتى نظام. صيحة وصلت إلى كل أرجاء السجن وحار الأمن كيف يتعاملون مع الموقف. إدارة السجن تخشى انتقال عدوى الاحتجاج إلى أقسام أخرى، وحينها يصبح السجن في طريق الخروج عن سيطرة الأجهزة الأمنية بالكامل.

حاول رجال الأمن في أول النهار تجاوز الموقف رغم خطورته بتجاهل الحدث وإدخال الفطور الصباحي، إلّا إنهم جوبهوا برفض شديد من السجناء بمواصلة الاحتجاج. صار الموقف أكثر تعقيداً مع بدء الإضراب عن الطعام واستمراره طيلة النهار، مما استدعى تدخلاً خارجياً من إدارة أمنية عليا بعد عجز إدارة السجن عن احتواء الموقف. انتهى الإضراب بعد وعود نفذت على الفور بتحسين جزئي للأوضاع وإجراء زيارة لعدد محدود من السجناء مع أهاليهم لأول مرة. تبع ذلك تخفيف الضغط قليلاً بفتح أبواب الزنزانات في ساعات محددة من النهار ليحظى السجناء بحرية الحركة ولو لثلاث ساعات فقط في اليوم، إلّا إنه كان انفراجاً كبيراً ومهماً.

بهذه الإجراءات الجزئية اليسيرة حاول الأمن احتواء الموقف المتفجر مؤقتاً، على أمل إعادة إجراءات القمع

والتعذيب بعد امتصاص الغضب وتهدئة الثورة بمعونة الخونة للحصول على أسماء المحرضين على الاحتجاج. وبالفعل قام الخائن معمر، وهو الشخص الوضيع نفسه الذي كان مراقباً في أول زنزانة دخلت فيها في السجن، بمحاولة إيصال معلومات خطيرة إلى رجال الأمن بصورة خفية، إلّا إن أمره كُشِفَ وتعرض بعدها لمحاصرةٍ ومضايقة من كل السجناء وتحولت حياته إلى جحيم. بدأ الأمن يخطط لبدء الثورة المضادة وإجهاض مكاسب الاحتجاج، بافتعال حادثة صغيرة ثم يجري تطويرها إلى قضية كبيرة وإنزال عقوبات قاسية بالسجناء لتعود سلطة الخوف من جديد تتحكم بالمشهد.

29

نتيجة للاحتجاج منح السجناء حق البقاء خارج الزنزانات إلى منتصف النهار ليعاد إقفالها عليهم من جديد حتى صباح اليوم التالي. كانت هذه السويعات القليلة فرصة للحركة وتبادل الزيارات، وساهمت في تسكين التوتر وتخفيف الضغط النفسي، وفتحت ممراً ضيقاً للتمتع بالحرية. لم يرق لأفراد الأمن هذا التحول في حياة السجناء وخططوا لإعادة حقبة التضييق والتعذيب المنهجي. وفي نهار دخلوا فجأة بهراوات يصرخون ويضربون السجناء لإجبارهم على الدخول المبكر إلى الزنزانات بلا أي مبرر، إلّا إن حساباتهم كانت غاية في الخطأ. لم يقدروا الموقف جيداً، ولا أخذوا بنظر الاعتبار إنهم في مواجهة مع سجناء سياسيين عددٌ ليس بالقليل منهم امتهن المعارضة، ويبرع في حشد الأنصار وإثارة العواطف والحماس، وكثيرٌ أصابه يأس من الظروف المزرية ويتشوق للمواجهة مع الأمن خلاصاً من حياة لم تعد لها قيمة عنده ولا يكترث لها.

رفض السجناء الدخول إلّا إن عناصر الأمن كان يبدو بجلاء إنهم يتحركون بتعليمات محددة، ملخصها إجبار السجناء على الدخول القسري وإيقاع أذىً بالغ بهم إن بدا منهم أدنى احتجاج، في مسعى واضح لاستعادة زمام المبادرة التي فقدت منهم منذ الاحتجاج الكبير. تحول الرفض إلى شجار بالألسن ومن ثم تطور سريعاً إلى اشتباك بالأيدي، ليندفع السجناء بعدها بشكلٍ جماعي نحو أفراد الأمن الذين هربوا مذعورين من الثورة الجماعية. أي شيء طالته أيدي السجناء تحول إلى مقذوف ينزل من كل حدب وصوب فوق رؤوس الأمن، الذين ما عادوا يعرفون أين يختبئون وبمن يستنجدون فتحول السجن إلى فوضى حقيقية. تشتت شملهم حتى إنهم باندفاعتهم السريعة إلى باب القسم الرئيس نسوا صاحباً لهم وخلفوه بين أيدي السجناء الذين وضعوا سطلاً في رأسه ليمنعوه من رؤية الوجوه وأشبعوه رفساً ولكماً وركلاً، فيما كان يركض باتجاه الباب ليعلق هناك بين الطرفين. رجال الأمن يحاولون إغلاق الباب الخارجي خوفاً من اندفاعة السجناء إلى الخارج، وهو يقاتل لأجل فتحه والإفلات من قبضة السجناء، فصار يتلقى الضربات من السجناء تأديباً له ومن رجال الأمن

الذي خالوه سجيناً يحاول اقتحام الباب والهرب. تنهال عليه عصيهم وهو يصرخ بهم طالباً النجدة، إلى أن تعرف عليه أحدهم من صوته وأنقذه بعد أن نال عقاباً لا يُنسى. دبّ الفزع بين رجال الأمن ولم يكتفوا بإغلاق الباب المحصن بالأقفال الثقيلة، بل استدعوا حداداً على وجه السرعة ليغلق الباب المحصنة بواسطة اللحام وصار اقتلاعه أو فتحه أمراً مستحيلاً.

اُسْتُدعيت على الفور كل قوات حرس السجن ومعها قوات إضافية، ودخلوا في أقصى حالات التأهب لبدء معركة حقيقية، لأن السجناء في هذه المرة سيطروا فعلاً على القسم. كان العدد في كل قسم يربو على الألف سجين وجميعهم أحرار في الحركة داخل القسم بلا أي حواجز بعد أن تركت أبواب الزنزانات مفتوحة. شرعوا بإطلاق الرصاص الحي على جدران القسم من الخارج، ولأنهم لم يتركوا من قبل أي فجوة في تلك الجدران المبنية بإحكام والتي لا يخترقها شيء، فقد خاب رميهم وفشل مسعاهم في إصابة أي شخص من السجناء الذين انبطحوا جميعاً إلى الأرض اتقاء الرمي الأعمى متحصنين بالجدران الكونكريتية.

صعد أفراد مكافحة الشغب إلى نقطة عالية في سطح

السجن، وألقوا قنابل مسيلة للدموع من خلال فتحات تهوية على علو شاهق تطل على الممر بين الزنزانات، لكن لم يفت هذا في عضد السجناء الذين واصلوا الهتاف عالياً بصرخات الاحتجاج. استعان السجناء بالماء والبصل وبطرق بدائية أخرى لمكافحة تأثير الغازات المسيلة للدموع. سيطر الرعب تماماً على عناصر الأمن، لأن السجن كله صار الآن يسمع الفوضى وسرت عدوى الانتفاضة إلى أقسام أخرى من السجناء السياسيين في الأقسام المفتوحة. أصبح السجن برميل بارود حقيقي يوشك على الانفجار في أي لحظة. لم يستقر الموقف إلى أن جاء وفد حكومي عالي المستوى لمعاينة السجن بإيفاد خاص من جهات عليا في الدولة مفوضاً بصلاحيات واسعة على ما يبدو.

طلب الوفد من السجناء الأمان للدخول إلى القسم وإجراء مفاوضات معهم، وهنا كانت براعة السجناء ومهارتهم العالية في التفاوض إذ إنهم ردوا عليه رداً كان خطوة واسعة بإقناع الوفد الرسمي، وأجابوه بأنهم هم من يطلب الأمان وإن الوفد له كامل الحرية باعتباره هو المسؤول عن تحقيق النظام بالدخول إلى السجن واتخاذ الإجراء المناسب. ردٌ فاجأ الوفد إذ إن هذا الكلام

يتناقض مع ما نقل إليه عن تمرد ومحاولة للسيطرة على السجن. حينما دخل الوفد إلى القسم زاد استغرابه من الهدوء الكبير، وأن لا وجود لأيّ آثار معركة، إذ قام السجناء بتنظيف القسم بسرعة بمبادرة ذكية اقترحها أحدهم لإبطال دعوى متوقعة من أفراد الأمن بأنهم هوجموا من قبل السجناء من غير سبب. عجز الوفد عن إدراك شيء يدين السجناء، وصاروا يتبادلون النظرات فيما بينهم في حركة تشعر الرائي بأنهم قد ضللوا من قبل عناصر الأمن المسؤولة عن إدارة السجن. ظل الوفد يجول على الزنزانات واحدة تلو الأخرى طوعاً ويستفهم منهم عن سبب الصياح والمشكلة، فشرحوا له بنفس واحد، إنهم يعيشون ظروفاً معاشية قاسية وإنهم يطالبون بتحسينها من تغذية وصحة والسماح لهم بمواجهة أهاليهم ورؤية الشمس بعد كل هذه السنوات. أصر الوفد على التعرف على المطالب السياسية وحاول استدراجهم لذكر أي منها، فأنكر السجناء أي مطلب لهم، بل قالوا له نحن سجناء محكومون وفق القانون ونطالب بحقوقنا كسجناء فقط لا أكثر من ذلك. ولما اطمأن الوفد أن لا مطالب سياسية تقف وراء الاحتجاج وأن لا وجود لحركة معارضة للحكومة رغم محاولة الضابط المسؤول عن

السجن تدبير تهمة التظاهر السياسي، لكنه أحبط تماماً أمام براعة السجناء في إدارة الأزمة الذين عاملوا الوفد باحترام كبير وأدب جم مما أعطى الوفد انطباعاً مغايراً، بأن المطالب الحقيقية هي مطالب معيشية فقط. لذا قال المسؤول الأمني في الحال، إن هذه حقوقكم وليست مطالب وسوف تنفذ على الفور.

توافق حصول هذه الأحداث مع قرب انتهاء حرب الخليج الأولى وبروز توجه حكومي نحو تخفيف القبضة الحديدية، وبدأت إدارة السجن بالفعل بتنفيذ الوعود الحكومية بسرعة وسمح لأول مرة للسجناء برؤية أهاليهم والحصول على فرصة حقيقية لرؤية شمس أشرقت علينا في آخر مرة قبل سبع سنين عجاف.

30

الإذن بزيارة الأهل كان يسير بإجراءات روتينية مملة ومضحكة أحياناً. كان أفراد الأمن يروحون ويجيئون ويسألون عن عناوين سكنى كل واحد منّا، ثم يقولون: لم نستطع العثور على العنوان الصحيح لربما تغير سكنهم، سوف نجري بحثاً جديداً عن أهاليكم وحالما نجدهم سوف يتم تبليغهم لزيارتكم. تكرر هذا الادعاء منهم وكنّا نقابله بمزحة: لكنكم حين اعتقلتمونا أخرجتمونا من تحت الأرض في خمس دقائق.

هنا تدخل قميصي التركي "مراد" الذي جاء معي من المعتقل وأرسلته مع عائلة أحد السجناء ليبشر أهلي بأني ما أزال حياً، وصل قميصي إلى متجر والدي الذي تمكن من التعرف عليه وتأكد إني ما زلت على سطح هذا الكوكب أتنفس الهواء مثله، وإن كنت أقطن مكاناً قصياً. استبشروا أهلي به بعد أن بلغ اليأس فيهم منتهاه، حتى ان والدتي لم تلبس غير اللون الأسود طيلة سبع سنين حداداً عليَّ. وطيلة هذه السنين وعلى التقليد البغدادي بالنذور

كانت تذهب ماشية حافية كل سبت إلى المشهد المقدس في الكاظمية تسأله يوماً تشرق الشمس فيه عليَّ من جديد.

في مستهل الأسبوع الثاني من بداية الخريف وتحديداً يوم الثامن والعشرين من أيلول وبعد مرور عام كامل على نهاية حرب الخليج الأولى، استقبلنا أهالينا لأول مرة في زيارة جماعية عامة. كان حدثاً غريباً عاد منه كل سجين بقصة غريبة ومشاهد عجيبة ومشاعر مختلفة. وجوه الآخرين مسحت من الذاكرة واستعادتها كانت تشبه رحلة النواخذة في استخراج اللؤلؤ تحتاج إلى غوص عميق بعدة بدائية. كنّا كشجرة أصابها جفاف احتواه زمن ممتد بسكونه وظله الكئيب ما جعله دهراً لا ينقضي، فنسيت معه طعم الماء. كنّا كذلك بحرماننا من مشاعر العاطفة والرحمة حتى ظننّا أن ليس للبشر شيء منها، وإنها مثل خرافات الأقدمين. فجأة نزل علينا غيث غزير يكفي لأن تبحر به أعظم سفينة. التعرف على الأهل مهمة ليست بيسيرة وتتطلب إعادة ترتيب للعالم الداخلي وتعديل ذكريات طغى عليها الألم، والغضب، والحزن، والأسى. لا توجد مهمة أكثر مشقة ولا أزيد صعوبة من تعديل أفكار المرء عن نفسه مع مستقبل غامض يقترب منه.

كنت واقفاً أنتظر قدوم أحد ما لزيارتي في ذلك اليوم بعد أن أذاعوا اسمي في سماعة داخلية. لم يكن بمقدورنا أن نعرف من أتى لزيارتنا. يسمح لنا بالخروج إلى ساحة التزاور بعد أن يذاع اسم أحدنا لنقف هناك ننتظر قدوم الزائر. دخلت امرأة لم أتعرف عليها، إنما لفتت انتباهي وهي تتلفت يميناً وشمالاً تبحث عن الشخص الذي تقصده. تدور حائرة بين الوجوه مثلي تماماً كما كنت أبحث عن وجه زائري. وصلت قريباً جداً مني بحيث لو تستدير باتجاهي لوضعنا عيوننا أحدنا بعين الآخر مباشرة، بل لسمع كل منّا أنفاس الآخر في صعودها ونزولها. سألت أحد السجناء عني، فأشار اليَّ وأنا ما زلت أواصل النظر اليها مدققاً، غير قادر على التعرف عليها، ثم وقفت أمامي وهي تفتح عينيها بدهشة وتناديني باسمي. حينها فقط أدركت إنها تشبه خالتي ثريا، بل هي خالتي ثريا.

في الزيارات اللاحقة لم أتعرف على شقيقي الأصغر عادل، لأنه كبر وصار شاباً جامعياً، وبدا لي والدي مسناً جداً. قضى معظم الوقت يومها في نوبات بكاء ينخرط فيها فجأة، يسبب لي معها اضطراباً يطيش بلبي وأنا انظر إليه مشدوهاً مبهوتاً لا أعرف ما الذي عليّ فعله لمواجهة هكذا موقف. كان أهلي يجلسون قبالي يمعنون النظر فيَّ

ويرقبون كل حركة تصدر مني. لم يخفت توترهم إلّا بعد أن تكررت زيارتهم لي واطمأنوا لتكرارها فهدأ روعهم بعد أن أصبحت أمراً عادياً، يتكرر كل شهر مرة ثم صار كل أسبوعين. كثيرون جداً من أقاربي تجنبوا الحضور خوفاً على سمعتهم لدى الدولة، خشية أن يلحقهم أذى محتمل في مستقبل وظائفهم إن أعلنوا قرابتي منهم، ولم أعر ذلك اهتماماً.

كان معنا في زنزانة المعتقل ضابط برتبة كبيرة كان يعلم أنه محكوم عليه بالإعدام حتماً ولن ينجو من الموت شنقاً، كان يقول لشقيقه الخائف الذي لم يكن له من الأمر شيء واعتقل بسبب قرابته منه فقط:

- لا تخف يا أخي الصغير، سوف تخرج من المعتقل وبعد سنوات سوف تمشي في الأسواق وتقول للناس أنا أخو الشهيد فلان وسوف تبحث عن امتيازات باسمي.

"بطرس سوف ينكرنا ثلاث مرات، مرة في السجن وأخرى في الزيارة وثالثة حين نخرج من السجن، طالما حرس القيصر وكهنة المعبد ما يزالون يحكمون أورشليم، وبعدما يصيح الديك معلناً فجر الأمان سوف يخرج حينئذ في الشوارع والطرقات ويقول أنا تلميذه المقرب ومن حواريه، وسوف يجول في كل مكان ليكرز باسمه

ويقول خذوا دينكم مني أنا الباب المؤدي إليه، ويبدأ في توزيع صكوك الغفران ويعطيهم شهادة نعيم يحوزها بعيداً عني".

31

صور مأساوية كانت تحملها كل زيارة، إحدى العوائل أُبلغت بأن تأتي إلى السجن لتستلم جثة ابنها إلّا إنها فوجئت بابنها يدخل عليهم، فأغمي على رب الأسرة في الحال وسقط مغشياً عليه وحار الأهل بين الترحيب بابنهم المغيب منذ سنوات وبين إسعاف الأب المغمى عليه. أشدها مأساوية كان يوم رفضت أم تصديق ابنها حين قابلته، لأنه كان طفلاً قاصراً حين الاعتقال بعمر ثلاث عشرة سنة تقريباً وتقدم نحوها وهو شاب عشريني، بشارب يعلو فمه خطته سنوات الألم وذقن مرسل من حزن الفراق وهو يناديها باسمها:

- أماه يا أماه أنا وليدك الصغير.

حاول الارتماء في حضنها عائداً لطفولته التي أريقت في هذا القبو المظلم. الأم المفجوعة بصغيرها تبعده عنها، وتقول له أنت ماكر محتال، ابني طفل صغير وأنت مزيف عميل للأمن، يريدون أن يستبدلوك بابني ليقتلوه. جلسا على التراب أحدهما قبال الآخر في حالة انهيار

شامل، هي تبكي شوقاً لأمومتها التي عجزت لسنوات أن تمنحها لصغيرها وهو يبكي حناناً مفقوداً. السجناء وبعض من الزوار متحلقون حولهما ينقلون ناظريهم بينهما مثل بندول يتأرجح، بين بكاء على حالهما وبين محاولة إقناع الأم بأن صغيرها قد عاد إليها لكنّه لم يعد يجري وراء الكرة مع الصبيان في الأزقة، ولا يلعب بالكرات الزجاجية الملونة (الدعابل) في الحواري، بل غدا شاباً مثقلاً بالهموم يحمل عذابات لم يقو على تحملها كهلة وشيوخ.

في مرة كنت أنتظر دخول اهلي وإذا بامرأة تبكي تقترب مني وتسألني عن فلان وفلان وفلان وفلان وفلان، نعم خمسة لا أعرفهم ولا سمعت بأسمائهم من قبل، سألتها:

- من هؤلاء يا أماه؟

قالت وهي تولول والدموع تغسل وجها من غبار الزمن.

- أبنائي الخمسة، لما سمعت أن الزيارات سمح بها لكم قلت لابد أن يكونوا معكم فهل تعرفهم يا ولدي؟

افترشت التراب تبكي وأنا أقف على رأسها أنقل لها أسوأ خبر يمكن أن تسمعه، أن لا أحد منهم هنا. نحرتُ

آخر آمالها على التراب بين قدميها، وهي تهيله على رأسها وتولول:

- إلى أين أذهب حتى أعثر عليهم يا أماه؟

كان خليقاً بي أن أهدئ من روعها وألَّا أوصد الأبواب أمامها، لكني فعلت عكس ذلك بحماقة، أو كأنما الموت صار خبراً عادياً عندي ولم أدرك أي جحيم صببت بكلماتي على رأسها المتشح بالسواد كما هي سائر ثيابها حتى نعلها والجوارب.

كنت، ولست وحدي في ذلك، أعود متعباً من لقاء الأهل يصيبني إرهاق بالغ كأنما كنت أحتطب في غابة جبلية منذ الغبش حتى الغسق، بلا فتور ولا لهنيهة واحدة. ما أن أعود إلى الزنزانة أستلقي مسترخياً ثم أنزلق في غفوة عميقة. قبل موعد الزيارة كنّا ننشغل كثيراً في الاستعداد لها، وساعة اقتراب اللقاء تضطرب أعضائي بعنف، ويتزايد وجيب قلبي ويرتج رأسي وتخفق حواسي كلها. فات وقتٌ طويلٌ جداً حتى صارت شيئاً قريباً من المألوف.

بالنسبة لي استغرق الأمر أكثر مما استغرق من أهلي، الذين كانوا يرجعون إلى حياتهم وينشغلون بأمورهم اليومية بينما كنت أعود لأنشغل بمحاولة التوافق مع هذا

العالم الغريب الذي أطل برأسه عليّ. مسافة شاسعة ظلت تفصلني عن العالم الذي بدا غريباً جداً، فقد توقف الزمن منذ ساعة اعتقالنا ولم تتحرك عقارب الساعة إلّا حين ولج من الباب أولئك الأقرباء الغرباء من ذاك الكون البعيد، كان مقدمهم زلزالاً أصاب أرضاً ساكنة تداعى كلُ بناءٍ فوقها منهاراً وخرج من باطنها ما قد دفن لسنوات.

حدث انفراج واضح في وضعنا العام بحيث قل عدد السجناء في كل زنزانة، وفتحت أبواب الزنزانات بشكل دائم وصار التزاور بين السجناء والاتصال متاحاً للجميع. تحسنت كمية المياه الواصلة بشكل كبير ولم نعد نعاني من شحتها لا في مشرب ولا في استحمام، المواد الغذائية تصل إلينا من الخارج وكذلك الأدوية والثياب الجديدة واستغنينا عن زي السجن وعن طعامه إلّا بحدود الخبز اليومي وبعض الوجبات اليومية التي لم يكن سهلاً إعدادها.

أتيحت الفرصة الكاملة لإعداد الطعام واستخدام معدات الطبخ كاملة من مواقد بسيطة تفي بالغرض المطلوب. صار صوت السجناء قوياً عالياً حتى إنهم فرضوا على الأمن إخراج خائن من الأقسام بعد انكشاف وشاية قام بها للإيقاع بمجموعة من السجناء، فرضخ

الأمن لمطلب السجناء خشية تجدد المواجهة معهم من جديد. وكان يوماً مشهوداً إذ وقف ذليلاً يحتمي بالأمن وسط صيحات غضب وهياج عارم من السجناء، فيما أكبر ضابط مسؤول عن السجن يدور بين الأقسام باذلاً اقصى جهده، يقفز بين المكر حيناً وممارسة المرونة واللين حيناً آخر لمفاوضة السجناء وإقناعهم بقبوله في أحد الأقسام، ولكنه لم يفلح في مسعاه، بل فشل فشلاً ذريعاً في الحصول على الموافقة من أي قسم على قبول هذا المنبوذ؛ مما اضطره إلى أخذه إلى مكان منعزل. الرفض الجماعي والإصرار على لفظ الخونة الوشاة صار درساً قاسياً وعبرة كبيرة لم يجرؤ أحد بعدها أي من الخونة والضعفاء على اللجوء إلى الوشاية أو للتعامل العلني، بل ولا حتى السري مع الأمن.

32

صارت الفرصة مواتية لممارسة أنشطة رياضية وإقامة مباريات دورية في كرة القدم المصغرة، إذ لم يكن هناك من ملعب حقيقي يصلح للّعب فيه، إلا قطعة أرض صغيرة مليئة بالحفر غير منتظمة الأبعاد. الحصول على الكتب من خلال المواجهات صار ممكناً، بل تمكن كثير من الأهالي إدخال المذياع لأبنائهم السجناء وبعض تمكن من تهريب كاميرات فوتوغرافية بطرق سرية بوضعها في قدور الرز المطبوخ الذي كان يحمله الأهالي معهم بشكل عادي. باختصار تغيرت الأحوال بشكلٍ كبير وانقلب الحال رأساً على عقب.

تقلصت الأعداد في الزنزانات بشكل كبير جداً بفعل السياسة الجديدة بفتح أقسام جديدة، ونقلت لأحد هذه الأقسام الجديدة ويطلق عليه (ق٣)، وهو قسم غريب في تصميمه. كان مؤلفاً من طابقين يحوي أربعين زنزانة صغيرة جداً بطول مترين وربع وعرض يزيد عن المتر الواحد بقليل. كل واحدة لها باب مصنوع من قضبانٍ

حديدية قوية. هيئة توحي بلا لبس إنها سجنٌ انفرادي، إلّا إن أربعة أشخاص منّا كان ينام في كل زنزانة. الأبواب الداخلية مفتوحة بشكل دائم مما سمح لنا بالحركة في أرجاء القسم بحرية طوال الوقت. في النهار تفتح بوابة خارجية مطلة على ساحة صغيرة ملحقة بالقسم نمارس فيها ألعاباً رياضية خفيفة، وأيضاً كان بالإمكان أن نعد وجبات الطعام في غرفة صغيرة ملحقة بهذه الساحة. كان انعطافاً كبيراً في تحسن الأوضاع عندما انتقلنا إلى هذا القسم وشعرنا براحة كبيرة فيه مع سعته الظاهرة وقلة أعداد السجناء فيه.

في صباح يوم صيفي لاهب بطقسه وأحداثه استيقظنا على نبأ تتناقله محطات الإذاعات الأجنبية والمحلية وهي تتحدث عن اقتحام الكويت وغزوها من قبل القوات العراقية. وبينا كنّا نستمع طوال الوقت بلهفة إلى نشرات الأنباء وتطورات الأحداث المتسارعة عبر الراديو، وإذا بأوامر طارئة تصدر إلينا على عجل تطلب منّا إخلاء القسم (ق٣) بالحال والتوجه فوراً إلى الأقسام التي كنّا فيها سابقاً. في أقل من ساعة واحدة تم إخلاء القسم ليحل محلنا فيه سجناء جدد من طراز خاص، لم تتبين لنا هويتهم في بادئ الأمر. أصابنا فضول كبير لمعرفة

القادمين الجدد لتزامنه مع غزو الكويت مما ولد فينا رغبة كبيرة لاكتشاف هذا التلازم بين الحدثين.

(ق٣) بالأصل عائد لجهاز المخابرات وسكانه من المحتجزين على حساب القضايا المختص بها. وضعنا فيه لشغوره وعدم حاجة قسم المخابرات له، الذي كان يدير قسماً مجاوراً له يشبهه في التصميم بالضبط. لم نكن نملك أي فكرة عن المعتقلين في هذين القسمين لأنهما كانا تحت رعاية حصرية من المخابرات ولا يسمح لأيّ أحد بالتدخل فيه، حتى لو كان من عناصر الأمن أو إدارة السجن وفي حالات نادرة كانوا يستعينون بسجناء محددين للقيام ببعض التصليحات الفنية الطارئة وسط إجراءات أمنية مشددة. اتجهت توقعاتنا إلى سجناء من طراز خاص وكان حدسنا في محله عززه سماعنا لأصوات متباينة تكشف عن تنوع في الأجناس والأعمار، ولم نكُ متأكدين مما نسمعه بشكل قاطع إلّا أنه ولد عندنا شكوكاً قوية استناداً إلى خبرتنا المتعاظمة بعد هذه المدة الطويلة وتعاملنا مع ظروف وأحداث مختلفة. أن يكون هؤلاء السجناء من العوائل أمر ليس بغريب فقد حصل هذا في السابق حين اعتقل النظام عوائل بأكملها من مدن وقرى في العراق مثل بَلد والدجيل وقرى كردية

كثيرة. غير إن ملف اعتقال العوائل تم تصفيته بإطلاق سراح المتبقين منهم بعد أن نفذ الإعدام بأعداد غفيرة منهم وعثر على رفاتهم بعد عقود في مقابر جماعية فيما ظل قسم آخر في عداد المجهول. وصلت أخبار هذه العوائل إلينا من شيبة وشباب، بل وحتى أطفال نقلوا إلى أقسامنا كسجناء بعد أن صدرت بحقهم أحكام بالسجن لمنع عودتهم إلى مدنهم وقراهم. ومن خلال الزيارات تأكد لنا نبأ إغلاق هذا الملف كاملاً.

إذا لم يكونوا من هؤلاء فمن يكونوا إذن النازلين الجدد؟ صرنا نتلصص ونجمع الأخبار عنهم بأيّ وسيلة وبعد عدة أسابيع أستدعى جهاز المخابرات سجيناً من الأقسام المغلقة اسمه (حسين گاطع) من محافظة البصرة وطلب منه القيام بتصليحات فنية طارئة وحذره رجال المخابرات من الكلام أو إجراء أي حديث مع السجناء الجدد لأيّ سبب كان. حين دخل هذا القسم رآه يشبه (ق٣) إلّا إن الزنزانات بدل أن تكون واجهتها من القضبان كما هو المعتاد وجد أن هذه القضبان قد أغلقت بصفيحة حديدية تمنع رؤية من في داخل الزنزانة، ولأن عمله كان داخل الزنزانات فقد استطاع رؤية السجناء وهم يخرجون منها ويوضعون في الممر الوسطي بينما يقوم

هـو بأعمالـه مـن تصـليحات. كـانوا جميعـاً مـن الشـباب ويرتـدون زي السـجن الكائنـة. عـرف أنهـم كويتيـون حينمـا سمعهم يتحدثون بينهم بلهجتهم المميزة، وقد بلغ اليأس والإحباط عند بعضهم حداً كبيراً بسبب المعاملة السيئة يتحدثون عن بقائهم إلى آخر أعمارهم في هذا السجن.

لم يستطع حسين گاطع تبادل أي حديث معهم، ولكنه استرق السـمع لكـل حـديث جـرى بـالقرب منه باهتمـام وعلـم أنهـم أسـرى، مـع أنـه عجـز عـن معرفـة وظـائفهم السـابقة. ولفـت انتباهـه غرفـة صـغيرة أوسـع مـن بـاقي الزنزانات كان فيها أسرى لم يسمح له برؤيتهم مطلقاً، ويبدو أن لهم خصوصية ما، إما لوظائف عالية أو وجاهة اجتماعية كبيرة. عدد الأسرى قياساً لظروف حجزنا لن يقل عن مئة شخص وربما يكون العدد ضعف ذلك.

أمـا (ق٣) الـذي أُخلينـا منـه فقـد جـاء إليـه أسـرى كويتيـون، ولكـن مـن نـوع آخـر. عـن طريـق عمـال فنيـين سجناء من القومية التركمانية دخلوا للقيام بإصلاح أعطال كهربائية تعرفوا على الموجودين من الأسرى الكويتيين من زيهم الخليجي، حينما شاهدوا نساءً خليجيات بزي محتشم بأردية طويلة وغطاء رأس وبينهن أطفال بعمر يتراوح بين العشر سنوات والأربع عشرة سنة تقريباً

وشباب في العشرينات من العمر ورجال آخرين بأعمار متوسطة. وبذا يمكن الحديث عما يزيد عن مئتين إلى أربعمائة أسير كويتي تم احتجازهم في هذين القسمين.

بعد عدة أسابيع ومع بدء العمليات الحربية وتراجع القوات العراقية أمام الضربات العسكرية سمح للأسرى الموجودين في (ق٣) بالخروج إلى ساحة جانبية في القسم للتمشي أو لممارسة ألعاب رياضية. من الممكن أن يكون قد حصل الأمر نفسه للأسرى في القسم الآخر، إلّا إنه لم تتوفر فرصة للتأكد من ذلك. صارت أصواتهم واضحة لكل أحد قطعت كل شك وصار الأمر جلياً للجميع، إنهم عوائل كويتية محتجزة. استرقنا النظر من خلال فتحات صغيرة في ممر السجن الكبير الملاصق للساحة الصغيرة حيث يسمح لهم بالتمشي. كنّا نقف هناك بحجة الاتكاء على الحائط متظاهرين بالانهماك في حديث طويل بينما في حقيقة الأمر كنّا نواري زميلاً لنا يجلس إلى جوار فتحة صغيرة تقع أسفل الجدار الفاصل بينه وبين ساحة القسم يمر من خلالها أنبوب ماء. كنّا نحفظ مكانها جيداً بحكم تواجدنا المسبق في هذا القسم. كان التواصل صعباً جداً، بسبب المراقبة الأمنية وخصوصاً من المخابرات المعروفة بقسوتها، وأيضاً كان

من الصعب جداً بأن يثق أحد أفراد هذه العوائل بشخص مجهول يكلمهم من وراء جدار. كان من الطبيعي أن يظنوا به الظنون، ومع ذلك خاطر شاب منهم للحديث معنا فيما كان رفاقٌ له يلعبون كرة الطائرة مستغلاً على ما يبدو عدم تواجد عناصر المخابرات بالقرب منهم، وبعد أن أطمأن لطريقة سلامنا عليه ونبرة حديثنا معه، عرفنا إنهم أسرى كويتيون محتجزون وبينهم نساء وأطفال.

لم يكن الوضع مريحاً يا للأسف لتبادل أحاديث مفصلة، بل كل ما جرى هو مجموعة أسئلة قصيرة وأجوبة سريعة. علمنا بانه سمح لهم بمغادرة الزنزانات مؤخراً وتحسنت شيئاً ما معاملتهم وأتيحت لهم فرصة الخروج إلى هذه الساحة الصغيرة لرؤية الشمس وممارسة بعض الألعاب الرياضية. وبدا أنهم تعرضوا في أول أمرهم لتعذيب جسدي لم نعرف مداه، إنما المعاملة السيئة كانت حاضرة بلا شك. معاودة الاتصال كانت صعبة لأن رجال المخابرات يتميزون بسمعة سيئة للغاية في التعذيب حتى إن رجال الأمن أنفسهم كانوا يخشون الاصطدام بهم أو المخاطرة بانتهاك حدودهم الأمنية.

بيد إن أحد رفاقي في السجن تمكن من التواصل عبر هذه الفتحة مع شاب كويتي آخر استبشر خيراً بعد أن نقل

له أخبار تراجع الغزو وتقدم عملية تحرير الكويت وفي خطوة جريئة جداً، بل مغامرة كبيرة أوصل له راديو صغير بحجم الكف مما أدخل عليه بهجة وامتناناً كبيراً. هذه البشرى بانتهاء محنتهم كنّا أيضاً قد نقلناها لذلك الشاب وكنّا مقتنعين بالتلازم بين تحسن معاملتهم وأخبار تقدم عملية تحرير الكويت وهذا ما استنتجه الشاب الكويتي أيضاً.

أوصى صديقي هذا الشاب الكويتي بأن ينقل قضيتنا إلى العالم الخارجي حين يعود إلى وطنه سالماً وأن يعري هذا النظام الذي يذبح أبناء وطنه بينما يدعي الدفاع عنه فيما هو ينكل ويخفي معارضيه في سجون سرية بظروف بشعة. كنّا نتوقع أن يعودوا سالمين مع انكسار الجيش في حرب الخليج الثانية خصوصاً حين وضعت حرب الخليج أوزارها، وبالفعل أفرغ القسم بعد فترة قصيرة من وقف إطلاق النار من جميع هؤلاء الأسرى ونقلوا جميعاً إلى جهة مجهولة كما جاءوا وبعملية سريعة دون أن يخلفوا أية آثار وراءهم. ظلوا لغزاً لا يعرفه أحد من السجناء كما هو مصيرهم وبقت الأسئلة عنهم حائرة تبحث عن جواب شاف. من كان هؤلاء الأسرى وكيف جمعوا بهذه السرعة؟ ومن أين جيء بهم، والى أين

أُخذوا؟ وما قصة هؤلاء الذين منع كل أحد من رؤيتهم بالمطلق؟ أسئلة ظلت حبيسة في صندوق أسرار السجن الذي يخفي عجائب كثيرة. أملنا الكبير بعودتهم سالمين كان تقلقه دوماً خبرتنا الطويلة والمريرة مع نظام وحشي لم يتوانَ عن ارتكاب أبشع المجازر المروعة بحق أبرياء مسالمين لا ذنب لهم.

33

كان أمر إخلائنا من الأحداث الغريبة جداً، إذ إننا لم نجد مكاناً نأوي إليه حتى في السجن، سكان الزنزانات لم يعودوا يتقبلوا فكرة زيادة الأعداد من جديد بعد فترة الازدهار التي شهدها السجن مؤخراً. ها نحن صرنا تائهين في أول تبعة لهذا الغزو ولم نعد نعرف أين نأكل ولا أين ننام. حياتنا انقلبت إلى فوضى في نصف ساعة، وانتهى الازدهار الذي تنعمنا به لعام واحد فقط. كنا نأمل بأن عهده قد بدأ ليستمر طويلاً، إنما انحدرنا سريعاً في حالة عكسية من التشرد والضياع. عشت معاناة الغزو الذي تعرض له الكويتيون، خاطر متواصل ظل يطوف في رأسي وانا أتأمل أول تداعيات هذه المغامرة الهوجاء علينا فكيف سوف تكون على الكويتيين؟

استرجاع الأحداث مرهق ليس في تذكرها، ولكن في مرارتها. أي شيء في السجن كان قصة وحده، وكل يوم فيه يصلح أن تؤلف عنه رواية، بل إن بعض المواقف التي لم تستغرق سوى دقائق معدودة تستحق أن تكون رواية

طويلة أو فيلماً سينمائياً مشوقاً.

حالة الازدهار التي عشناها لسنة تقريباً، حينما أصبح لكل واحد منّا فيها له بطانيته الخاصة، وصار من الممكن أن يستحم أحدنا في كل يوم تقريباً. حصلنا على مبردة هواء صغيرة جلبها أهلي لي، لأننا لم نكن نملك مروحة هوائية في هذه الزنزانات الصغيرة. صار عندي مكتبة خاصة صغيرة مؤلفة من عدة كتب، ورجعت إلى مطالعة الروايات وكتب أخرى كانت تقع بيدي من سجناء آخرين أتبادل الكتب معهم. أحتفظ بأوراقي الخاصة في كراس وأدون عليه أفكاري وحصلت على مذياع صغير خاص بي حرصت على الاستماع عبره بشكل منفرد وباهتمام كبير لكثير من البرامج السياسية والثقافية ونشرات الأخبار. إلّا إن هذا كله انهار في ساعة الغزو وأصبحت أجرجر أغراضي وأدور بها مثل متشرد هائم على وجهه ليس له من مأوى يركن إليه ولا مضجع يستلقي فيه. كان من الغريب أن تظهر نوازع أنانية عند عدد ليس بالقليل من السجناء الذين رفضوا التخلي عن وضعهم المريح نسبياً بسبب التحسن الأخير الذي طال الجميع. لم يرضوا باستقبالنا أو السكن معهم من جديد في الزنزانات وتقاسم المحنة المؤقتة، صرنا ندور تائهين حيارى يبحث

كل واحد منّا عن مأوى يبات فيه ليلته أو يجد موضعاً يركن إليه مع عفشه المتواضع. لم نجد من بد بعد أن وصلنا إلى آخر النهار إلّا أن نتجمع في ساحة شبه مفتوحة في أحد الأقسام، ونقضي ليلتنا هناك، بل ليلتين وثلاثة أيام كاملة إلى أن فتح قسم جديد احتوانا واحتوى درساً جديداً عن عيوب نفس أزاح الستار عنها نسيم خفيف للغاية.

مع اندلاع حرب الخليج الثانية، تزعزع الأمن وغابت الخدمات العامة بشكل شبه تام عن سائر البلد بسبب ضربات جوية عنيفة وقاسية تعرض لها البلد. هنا بدأت أفكار الهروب تراود السجناء، بل بعض منهم شرع في التخطيط لذلك، ولكن بتكتم بالغ. تكشف هذا الاستعداد حينما تمكن بعضهم من اختراق أسوار السجن العالية، وعبور خنادق تحيط بالسجن مملوءة بمياه آسنة، وتجاوز أسلاك شائكة مكهربة فقدت حصانتها مع اندثار الطاقة الكهربائية بسبب استهداف محطات الطاقة من قبل قوات التحالف الأمريكي/العربي الذي شن هجوماً مدمراً على كل المرافق الحيوية المدنية في البلد في خطوة غير مفهومة وقتها وأثارت عندنا تساؤلات كثيرة، إذ لم نجد من ربط بينها وبين تحرير الكويت.

أول حوادث الهروب من السجن الرهيب المحصن جيداً كانت من الأقسام المغلقة. فقد هرب شخصان في عملية جريئة كان لهما خصوصية ومحسوبان على الأقسام المغلقة، وإن كانا بالحقيقية ليسا من السجناء، بل من المحتجزين دون توجيه تهمة لهما وهما د. حسين الشهرستاني والسيد جعفر عبد الصاحب الحكيم. أمثال هؤلاء المحتجزين كان يوجد الآلاف منهم، بل عشرات الآلاف في أماكن شتى من البلد، ونقلت قصصاً رهيبة عن مواقع الاحتجاز هذه التي تقع في الصحراء في جنوب العراق وعن المعاملة القاسية لعوائل مكونة من نساء وأطفال، وكيف كان يتم بشكل دوري اختطاف مجموعة منهم بلا تمييز ليساقوا إلى مقابر جماعية وسط صمت ولا مبالاة يلف الحكومة والشعب وأوساط دعاة الثقافة والدولة المدنية وحقوق الإنسان ورجال الدين والأحزاب السياسية. قصة قصيرة واحدة تكفي لبيان وحشية الاحتجاز والمآسي التي وقعت فيه. أحد الصبية الذي كان في أحد المحتجزات في الصحراء نقل إلى السجن معنا حين بلوغه السن القانونية، روى أن الأمن كانوا بين فترة وأخرى يأخذون مجموعة من الرجال والشباب لقتلهم، وفي إحدى المرات أخذوا أطفال ضمن

المجموعة. أحد الأطفال لما رأى غلظة الأمن معهم عرف ببراءته أنهم سوف يعاقب، وظن كما يحسب كل طفل برئ أن ذلك بسبب شقاوة ارتكبها فقال لجلاد وهو يسوقه إلى عربة حمامه:

- عمو والله آني ما مسوي وكاحة ليش تأخذني؟

من يملك قلباً ليسمع نهاية هذه القصة؟ فأنا لا أملك حتى لساناً لروايتها.

كان الهروب الأول ذكياً، وجرى التخطيط له مع سجينين آخرين من الأقسام المفتوحة، وأحدث الهروب مفاجأة مدوية في السجن وأذهل السجناء والإدارة معاً، ولولا ظروف الحرب وارتباك السلطات آنذاك لكان رد الفعل قاسياً جداً ولوقعت بسببه عقوبات كبيرة يمكن لها أن تتحول إلى مجزرة، وبالمقابل لولا ظروف الحرب هذه أيضاً لما كان بإمكان أحد الفرار ولا محاولته، بل ولا حتى التفكير به أبداً.

عند كل شفق كان يجري تعدادٌ للسجناء بإجراء روتيني يومي لا تتخلف عنه إدارة السجن أبداً، ومن ثم تقفل جميع أبواب الأقسام وفي ضحى اليوم التالي تفتح الأبواب ثانية ليخرج السجناء في ساحات صغيرة متجاورة أحدها ينفذ على الأخرى وينهمك كل منهم بأمر

مـا يسـتهويه. بعـض مـنهم كـان حيويـاً مرحـاً نشـطاً قـوي الإرادة لـم تقدر كل سنوات السجن الطويلة ولا العقوبـات الصـارمة ان تفـت مـن عضـده أو أن تسـلبه إرادتـه ولا أن تخلي قلبه من الشجاعة ولا عقله مـن البصيرة والحكمـة، فيمـا آخـر غـدا ذا مـزاج قـاتم مظلـم يسـير منعـزلاً منفـرداً بمنأى عـن الآخـرين وبمنجـى مـن الحـوار وأسئلة متطفلـة قد تجره إلى بـث مكنوناته، يجترهـا وحـده لتنعكس على وجهه حزناً وأسارير عابسة وصمتاً على مـدار ليله وطـوال نهاره، لتفعل بـه أحزانه أضعاف ما تفعله ظروف السـجن القاسـية نفسـها. هـذا وذاك كـل واحـد منهمـا ينهمـك فـي عالمه فبعض يمارس الرياضة وآخر يجلس تحـت شـمس الصباح البـاردة يقـرأ كتابـاً، ويتجمـع آخـرون فـي حلقـات حوار ودردشة وآخرون ينهمكون في صـناعة أشـياء يدويـة وآخرون يقفون وحدهم كأنهم جثث هامدة تنتظر الدفن.

فـي ذاك الصـباح وبينمـا الكـل منشـغلٌ بعالمـه الخـاص وإذا بصـــوت الحـــرس ينـــادي لتعـــدادٍ طـــارئ وإخـــلاء الساحات والدخول إلى الأقسام فوراً. شهد السجن حركـة غير عادية وضوضـاء وجلبة من الحـرس حتى بعد أن تـم التعـداد الاسـتثنائي غيـر مفهـوم الأسـباب، اُقفلـت الأبـواب فــي خطــوة غيــر مفهومــة إلــى ان انجلــت الغبــرة بعــدها

لنكتشف أن مجموعة من السجناء قد هربت، اثنان من الأقسام المغلقة وآخران من الأقسام المفتوحة. تم اكتشاف ذلك بعد أن أبلغ نزلاء أحد الأقسام إدارة السجن عن اختفائهما من ليل البارحة وكانوا يظنون أنهما يبيتان في زنزانة أخرى مع أصدقاء لهم، لأن أبواب الزنزانات كانت مفتوحة طوال النهار، وحالة المبيت في زنزانة أخرى كان يحصل أحياناً رغم أنه لم يكن مسموحاً به من الناحية الرسمية، ولكن بعد تراخي القبضة الأمنية وقعت أمور كثيرة كانت تعد من الممنوعات.

34

هذا الهروب الجريء فتح بوابة الهروب أمام آخرين وكسر حاجزاً نفسياً مهماً، وكشف عن ضعف الدولة وقتئذ، وبالفعل نجح أكثر من شخص بالهروب بعدها. بعض محاولات الهروب كانت مغامرة شيقة تصلح لأن تكون عرضاً سينمائياً مثيراً. بعد تزايد حالات الهروب من خلال إحداث فتحات في السور الداخلي للسجن، والعبور بعدئذٍ من فوق السجن الخارجي بتسلقه بواسطة حبال تصنع داخلياً بطريقة محترفة، قامت الإدارة بتعزيز الحراسة على أبراج المراقبة وعلى الأسوار الخارجية بعناية كبيرة، وأصبح العبور على السور صعباً جداً إن لم يكن مستحيلاً، لأن كل نقاطه أصبحت تحت الأنوار الكاشفة وتحت مراقبة مشددة في الليل وهو الوقت المثالي لعمليات الهروب.

إلّا إن أحد السجناء استطاع الهرب بمفرده وبدون مساعدة من أحد، ونفذ عملية فراره بخطةٍ جريئة أبهرت الكل.

وجد هذا السجين المنحدر من عائلة كردية -للأسف أجهل اسمه فهو يستحق التخليد- تسكن قرية في منطقة جبلية بعد مراقبة طويلة ودقيقة، إن النقطة الوحيدة التي لا تسلط عليها الأنوار الكاشفة تقع تحت برج المراقبة تماماً، وتبقى منطقة مظلمة دائماً وتشكل زاوية عمياء على الحرس القاطنين فوقها. يستحيل أن يصدق أحد إن من يحاول الهروب سوف يجازف بالصعود إلى أكثر النقاط تحصيناً ويجعل من برج الحراسة نفسه ممراً لعبوره إلى الضفة الأخرى من سور السجن الخارجي. وبالفعل ألقى بحباله المتينة إلى هناك وبدأ التسلق من تحت هذه النقطة تماماً من تحت برج المراقبة، ليرتقي السور بخفة ورشاقة وهبط إلى الجهة الأخرى فيما كان الحرس متيقظين طوال الوقت ينظرون إلى كل الزوايا. لم يدركوا إن هروبه كان من بينهم، إلّا بعد أن عُثِرَ في نهار اليوم التالي على الحبل تلوح به الرياح ما يزال متدلياً من الدعامات الحديدية التي يستند إليها برج المراقبة يسخر من غباوتهم ومن خططهم الفاشلة. اختفى السجين الهارب تماماً عن الأنظار من يومها ولم يعثر عليه أبداً من أي جهة أمنية أخرى.

بسبب هذا الضعف الأمني السافر بدأ السجناء يفكرون

بمحاولة هروب جماعي، وجرى التهيؤ لهذه المحاولة والتخطيط للسيطرة على السجن ليلاً، بافتعال حادثة شجار واستدراج الحرس لها ومن ثم اعتقالهم والوصول إلى مفاتيح السجن وفتح الأبواب أمام جميع السجناء، إلّا إن الفكرة ألغيت بعد ذلك لتسرب نية الهروب إلى ادارة السجن فأحبطت العملية. تراجع منظمو هذه المحاولة عنها في اللحظة الأخيرة لحسن الحظ، لأنها كانت تحمل كثيراً من العشوائية والارتجال وكان يمكن أن تؤدي إلى مجزرة حقيقية مع أني كنت متحمساً لها في ساعتها.

إحباط هذه العملية لم يوقف مزيداً من عمليات هروب فردية وأحياناً لمجموعات صغيرة. بعضٌ منها تم في أيام الزيارات حيث استطاع بعض السجناء الهرب باستنساخ أثر ختم كان يوضع على ذراع كل زائر، يقوم السجين الهارب بوضع ذراعه على أثر الختم وينقله إلى ذراعه بعد معالجة فنية ويخرج مع أول طلائع المغادرين من العوائل الزائرة لأبنائها، موهماً الحرس إنه زائر ويقدم نفسه باسم شخص دخل إلى السجن فعلاً بعد ترتيب بطاقة تعريفية مزيفة له، ثم يخرج الرجل الحقيقي في وقت لاحق مع بطاقة تعريف شخصية يحملها مضافاً إلى الختم الحقيقي الموشوم على ذراعه. لم تكن تساور

حراس السجن الشكوك بعبور سجين باسم زائر حتى إن اكتشف خروج الاسم نفسه مسبقاً بالرجوع إلى قوائم الزوار ويتم التغاضي عن هذا التكرار على إنه خطأ اداري ويمر الموضوع وسط الفوضى التي كانت تعم البلد والسجن حينها بسبب ظروف حرب الخليج الثانية والانفلات الإداري والأمني. لم تكشف هذه الطريقة إلّا بعد تكررها وإلقاء القبض على أحدهم بعد أن شك أحد الحرس بهوية سجين متخفي مرتبك وهو يرتدي زيّاً غريباً محاولاً إخفاء ملامحه. حاول التملص من الحارس الذي القى القبض عليه لتتوقف سلسلة الهروب في أيام الزيارات.

أغرب عمليات الهروب كانت من شاب يدعى باقر القبانجي عرف بصلابته وجرأته، مع إنه كان على وشك أن يطلق سراحه خلال أشهر قليلة لانقضاء مدة محكوميته إلّا إنه مع ذلك قرر المخاطرة والهروب. كان سيدفع ثمناً غالياً لسنوات طويلة لو ألقي القبض عليه. واحدة من عمليات الهروب المشوقة في جميع أحداثها حصلت حين ادعى سجين يدعى عبد الله المظفر المرض في إحدى الليالي وأقنع الكل بما فيها إدارة السجن بإصابته بالتهاب الزائدة الدودية. تحسن المعاملة حينها

وفر فرصة لنقل السجناء المرضى ذي الحالات الخطرة والطارئة إلى مستشفيات خارجية للعلاج. وبالفعل تم نقل هذا السجين إلى مستشفى خارجي في منطقة الكرخ في منطقة سكنية كبيرة، وهناك ظل مصراً على ادعاء المرض فأجريت له عملية الزائدة الدودية بالفعل، ليحظى بفرصة البقاء في المستشفى ريثما يتعافى من آثار العملية، ولكنّه استطاع الهرب بعد ليلة واحدة قضاها في هذه المستشفى وهو ما يزال يئن من جراح العملية وآثارها. حمل أوجاعه معه في قصة مثيرة واستطاع الهرب إلى مدينته النجف متجاوزاً مفارز تفتيش كثيرة رغم إن اسمه قد وزع عليها في أحداث مثيرة ومن ثم أكمل رحلة الهروب إلى خارج العراق.

35

مع اندلاع انتفاضة شعبية كبيرة شملت معظم أرجاء البلد ساد تفاؤل كثيراً، وبدا إننا نعيش الأيام الأخيرة ليس في السجن وحسب، بل من عمر النظام الحاكم. عزز هذا الشعور فقدان الحكومة سيطرتها على أربع عشرة محافظة من أصل ثمان عشرة بعد هزيمة قاسية مذلة للجيش في حرب الخليج الثانية كلفت البلد آلاف الضحايا من الجنود والمدنيين وخسائر مادية هائلة. تهاوي سلطة وهيبة النظام تُوج باستسلام مخزٍ لقيادة طالما تبجحت بقدراتها الفارغة وكبريائها الأجوف، حينما جلست راضخة مستسلمة لكل شروط الغزاة في خيمة صفوان الشهيرة. كانت تصلنا الأخبار عبر أجهزة راديو شاع وجودها بين السجناء بعلم سلطات السجن وإن بغير رضاها. بدا إن عملية غزو الكويت قوضت النظام تماماً، وإن هي مسألة وقت قصير جداً لسقوط النظام الهمجي العبثي.

تغير سلوك إدارة السجن بشكل كامل، وصار ودياً

لكنه مرتبك أيضاً. ظلوا يمارسون دورهم الرسمي بإدارة السجن وتنظيم أموره وفق التعليمات العامة، إلّا انهم بدأوا يهابون السجناء بشكل جدي ويتجنبون إبداء أي مظاهر عدائية حتى مع صدور مخالفات جدية حقيقية. هذه المخالفات لو صدرت في وقت سابق ولو بمقدار عشر معشارها لكانت العواقب لا تحتمل، أما الآن فصارت تمر بسلام وكأنه لم يحدث شيء. الحرس يتوددون للسجناء وسط إيمان من الكل، من سجين وسجان، إن هذه الحرب دقت آخر مسمار في نعش الطاغية وسوف تحمله إلى مزبلة التاريخ مقبرته ومقامه اللائق به، وما على الكل سوى قليل من الصبر لحضور مراسم الدفن الرسمية.

كنّا نسمع صوت الانفجارات المرعب من الطائرات والصواريخ الأمريكية وهي تدك العاصمة، عبر فتحات علوية في أحد الأقسام الجديدة. نرى لهب نيران الانفجارات الهائلة تضيء السماء وتزيدنا قلقاً لما يحصل بالبلد، مع مخاوف جدية من احتمال تعرض السجن لضربة جوية لكونه يقع في منطقة قرب (معسكر أبو غريب). وبالفعل سمعنا في إحدى الأمسيات أصوات انفجارات قريبة جداً أرعبتنا لهول قوتها، بل رأينا

صواريخ كروز أمريكية تتجه إلى أهدافها ولا أحد يعترضها من الدفاعات الجوية، وتعبر بسلام من فوق السجن على ارتفاعات منخفضة جداً. كان بالإمكان رؤية تفاصيلها بسهولة وتبدو من شدة انخفاضها كأنها طائرة تستعد للهبوط في مدرج مطار قريب.

في نهار وبينما كنّا في ساحة السجن الخارجية مرت من فوقنا ثلاثة من هذه الصواريخ، وحاول حارس في أحد أبراج المراقبة أن يطلق الرصاص عليها ظناً منه إنه قادر على إسقاطها، فهب عليه السجناء بصراخ جماعي يوبخونه خشية أن يغير الصاروخ اتجاهه وينفجر فوق السجن. بالطبع هذا الاحتجاج لم يكن عن دراية ولا عن علم بهذه الصواريخ ولا بالشؤون العسكرية، لأنه لا يوجد أحد من السجناء يملك معلومات عسكرية حقيقية بمستوى محترف إلّا أشخاص قلة لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة وهناك شكوك جدية في اطلاعهم على معلومات تخص أسلحة متطورة كالتي نتحدث عنها. هذا الاحتجاج عبّر عن حالة الضعف المتردي التي بلغها النظام والأمن في السجن بحيث صار السجناء لا يهابون أحداً منهم، وبالأحرى صار الحرس هم من يهابون السجناء. لم تكن هذه الحادثة المرة الوحيدة التي عرت

وكشفت هذا التردي الأمني في حراسة السجن والسيطرة عليه. ففي يوم وفي عز الظهيرة هرب أحد سجناء الأقسام المفتوحة من فتحة صنعها في السور الخارجي للسجن. اشتبه أحد حراس أبراج المراقبة بوجود حركة مريبة بين الأحراش والأدغال المحيطة بالسجن فبدأ يطلق النار عليها، فما كان من السجناء إلّا أن بدأوا بالصراخ عليه وهو يحاول أن يفسر لهم ما يحدث، وهم يردون عليه بكلمات هي أقرب للتهديد من النصح، كانوا يقولون له:

- أخي، لا تورط نفسك! قد يكون هذا السجين الذي تدعي هروبه في مرمى طلقاتك وينال إصابة قاتلة منك.

- إذا تعرض للموت ماذا سيكون ردك؟

- هذا السجين حتماً وراءه من سوف يطالبك بدمه لو حصل مكروه له.

لم تكن هذه الحالة المنفلتة في السجن فقط، بل في عموم البلد، وكنّا نراها ونسمعها في أحاديث الزوار وعلى وجوه أهالينا الذين نلتقيهم أيام الزيارات حينئذ. موجة تفاؤل كبيرة بانهيار النظام في العاجل القريب كانت طاغية على الوجوه والأحاديث. كنت ضمن قلائل ينظرون بسلبية لدور القوات الأمريكية وهجماتها على البلد ولم أكن أرجو خيراً منهم. لم أثق بسياسة أمريكا،

وأعدها أُسّ البلاء في العالم كله وليس في منطقة الشرق الأوسط وحسب. الجو السائد كان خلاف ذلك، ويتمنى سقوط النظام بأيّ طريقة، حتى إنه في أحد الأيام وبعد نقاش عن الحرب وجه أحدهم لي كلمة فيها تشكيك بأصل معارضتي للحكم الفاشي. كانت لحظة عابرة لم تؤثر في علاقتي الشخصية مع هذا الصديق، لكنها كانت مؤشراً مهماً على إن المعارضة السياسية ينبغي لها أن توسع أفقها وتتخلى عن خصوماتها الشخصية، وان تجعل غايتها إرساء المبادئ الحقة وأهدافها في خدمة شعبها بوسائل صحيحة أخلاقياً، وأن تكون هذه الأخلاقيات هي المرشد والدليل القائد في جميع مواقفها السياسية ولا تسير وراء دوافع ذاتية ولا خلف مشاعر الانتقام الشخصي.

نهج الانتقام الشخصي الأناني رغم الأعذار التي تساق لتبريره يُبقي الشعوب في تيه لن تجد مخرجاً منه، وتظل تدور في حلقة معبأة بالكوارث والفتن، وفي النهاية يتوه الشعب كله ولو كان معه بطل عبوره موسى النبي نفسه، ولن يجد لهما أحد من أثر سوى حكايا قديمة تصلح للتسلية وللغارقين في أحلام لن يتحقق منها شيء لتغدو بطول أمدها كابوساً سرمدياً مزعجاً.

بيد إن الأمور جرت خلاف كل التوقعات المتفائلة واستعاد النظام سيطرته على أجزاء كبيرة من البلد بحملة قمع واسعة، مماثلة تقريباً في قسوتها لحملة مشابهة جرت في السنوات الأولى للحرب، لكن هذه المرة لم تستغرق هذه الحملة سوى أشهر قليلة ومع ذلك خلفت آلاماً عظيمة وضحايا بأرقام مرعبة. اطمأن النظام إلى أن هذه الحملة العسكرية الجبارة التي دمرت كل شيء في البلد لن تستهدف السلطة القمعية ورأسها؛ فأخذ النظام تفويضاً غير علني من القوات الأمريكية بقمع الانتفاضة الشعبية بالسماح له باستخدام الطيران العمودي. بدأ عملية استرجاع سيطرته الكاملة على معظم المدن التي انشقت عنه في عمليات عسكرية وحشية خلفت رعباً عظيماً وفزعاً كبيراً بين الشعب، وموتاً انتشر في صحاري وسهوب ووديان وجبال الوطن الذي تحول إلى محرقة ومقبرة هائلة. حينئذ انقلب التفاؤل الكبير الذي كان يظهر على وجوه السجناء وفي كلماتهم إلى تشاؤم أكبر منه.

36

في صباح يوم وبينما كان السجناء في الأقسام المفتوحة يتجولون في ساحة كبيرة مخصصة لهم بحجم مساحة ملعب كرة القدم، صعد على سطح السجن رجال مسلحون ببنادق قنص وصدر أمر لجميع السجناء بواسطة مكبرات صوت يدعوهم إلى الدخول فوراً إلى الأقسام، محذراً بأن من يتخلف عن الاستجابة الفورية يعرض نفسه لخطر الموت. كان طلباً يستحيل تنفيذه بالسرعة التي طُلِبَ بها وفوجئ السجناء برصاص حيّ يوجه لهم من قناصة متهيئين لعملية قتل عشوائي مما أردى بعضهم في الحال. هام السجناء يجرون في كل الاتجاهات لا يعرفون أين يختبئون، ولا بمن يستجيرون. ثم بدأ هجوم كبير عليهم من قوات أخرى كانت على أهبة الاستعداد ومتهيئة للقيام بعملية انتقام كبيرة، وعاد الرعب من جديد يخيم بمشاهد التعذيب الانتقامي والقسوة المفرطة.

استمر الحال هكذا لعدة أسابيع، رعب وخوف يطبق على الأنفاس وفي الليل تشن غارات أمنية على السجن

من قبل قوات أمنية لا يُعْرَف لصالح أي جهة أمنية تعمل، وفي كل مرة كان يتم اختطاف مجموعة من السجناء المعروفين بنشاطهم العام، مجموعة تلو الأخرى واقتيدوا إلى معسكر الرضوانية حيث جرت تصفية المعارضة المنتفضة وهناك اختفوا، ولم يعثر على أي أثر لهم بعدها أبدا.

كان تنفيذ الاعتقال يتم بطريقة تدخل الهلع والفزع، يطبق صمت كامل حين تدخل مجموعة من الجلادين يبدأ أحدهم بقراءة مجموعة من أسماء مطلوبين ثم يقتادهم مكبلين معصوبي الأعين في اعتقال جديد. قصص مرعبة عن تصفية المتهمين بالمشاركة في الانتفاضة الشعبية في معسكر الموت هذا وصلتنا من سجناء عادوا أحياء من هذا المعسكر الرهيب. حوادث قتل عشوائي كانت تجري بإشراف أكبر الشخصيات المتحكمة بزمام الحكم في البلد، أنقلها بإيجاز مخل لقسوتها. حسين كامل أحد أركان النظام المعروف بقسوته كان يشرف شخصياً على عمليات التعذيب، وقف في مرة على رأس مجموعة معتقلين في هذا المعسكر تعرضت للتعذيب في تحقيق وحشي أمام عينه، فطلب منهم بأن يديروا ظهورهم له ويسيروا قائلاً لهم:

- سوف أطلق الرصاص، من تصبه رصاصة ويمت فهو مجرم خائن.

وبدأ يصطادهم واحداً تلو الآخر بمسدسه الشخصي ولم ينج منهم إلّا قليل حالفه الحظ وقتها، لكن القاتل لم ينج، فبعد أعوام قليلة فقط ذبح هو وشقيقه ووالده وهدم داره من قبل نفس النظام وبأمر مباشر من سيده الذي اتبعه كالكلب الوفي طوال عمره.

سمعنا بهذه القصص المرعبة بعد وقت طويل، لأن من كان يعود من هذا المعسكر يعود صامتاً لا ينبس ببنت شفة عن سبب اختطافه واحتجازه في هذا المعسكر الرهيب ولا يتحدث عما جرى هناك، بل يرجع مقلاً إلى حد كبير في أحاديثه الخاصة والعامة، ولا يتكلم إلّا بحدود الحاجة. كان يبدو واضحاً أن العائدين من هذا المعسكر الرهيب تعرضوا لصدمة نفسية هائلة، أفقدتهم القدرة على النطق وأزاحت الثقة منهم بكل أحد، لذلك لم يجدوا من يبثوا إليه حزن تلك الصور الرهيبة التي شهدوها، فاختاروا الانطواء والانعزال والتقوقع في مشهد كان يثير الرعب فينا، وربما حتى أكثر مما كان في تلك الصور نفسها من قسوة، وهكذا يفعل الرعب والخوف بصاحبه.

بعد مرور عدة أسابيع وبعد أن أخمدت الانتفاضة تماماً، توقفت هذه الإجراءات القاسية، وبدا أيضاً إن النظام أضحى واقعاً تحت ضغط دولي كبير للإفراج عن السجناء السياسيين في جملة ضغوط واسعة مورست لتجريده من قوته، بل تجريد البلد من كل شيء في مخطط كبير وعميق لهدم الدولة العراقية بالكامل، والسير بها وئيداً نحو مرحلة الدولة الفاشلة في عملية طويلة تستغرق عقوداً. حاول النظام تفادي الضغط، وفي خطوة ترضية وتهدئة شعبية ودولية في الوقت عينه، أصدر إعفاءً عاماً عمّا تبقى من محكومية السجناء السياسيين بمناسبة يوم ميلاد الطاغية، الذي كان يحتفل به مع كل الهزائم والجراح والجوع والموت المنتشر في أرجاء البلاد. إلّا انه وبرغم كل هذه الضغوط لم يطلق سراحنا كما هو دأبهم في كل قرار شبيه كان يعلن عنه طوال عقد الثمانينات، واكتفى بإطلاق سراح السجناء السياسيين من الأقسام المفتوحة فقط. رغم مرور عدة أشهر على وعوده بإطلاق سراح كل السجناء السياسيين لم تظهر أي بوادر على ذلك، وصرنا نظن أننا سوف نواصل حياة السجن كالمرات السابقة حتى مع هذه التطورات الدراماتيكية في البلد.

في هذه المرة كما في مرات سابقة تعرفنا على أسماء وأرقام المواد التي حكم بها علينا، وكانت أول مرة نتعرف بها على أرقام المواد القانونية التي حُكمنا بها حينما صدر أول قرار رئاسي في منتصف الثمانينيات. أي من المعتقلين لم يلق بالاً لما كان يثرثر به القاضي في المحكمة الصورية في قرار الحكم، لأن جو السخرية والاستهزاء واللامبالاة من هذه التمثيلية السخيفة بالمحاكمة الصورية كان يسيطر على الأجواء. القاضي يحاول أن يظهر نفسه مع المحامي والمدعي العام كأنهم في محكمة حقيقية، وكأن التهم ليست زائفة، بل تسندها أدلة قاطعة وبراهين ثابتة، وإن ما جرى هو تحقيق قانوني عادل وإن الدفاع قد بذل جهده واطلع على الملفات وفحصها بعناية وإخلاص. وليس إن الأمر كله كان عبارة عن تهمٍ تلقى جزافاً بلا أدنى دليل ولا برهان، وإن التعذيب الوحشي كان الوسيلة الوحيدة لانتزاع الاعترافات. كثير من التهم كانت منتحلة كما هي الاعترافات، والقاضي والمدعي العام ومحامي الدفاع كلهم طالبوا بالموت للمتهمين، يقفون في خندق واحد بعداء سافر أمام معتقلين لا دليل عليهم سوى تهمة اُلقيت بناءً على شبهة واستناداً إلى شكوك وظنون، وتقارير،

وشاة ومخبرين.

وهل كانت المحاكمات أصولية حتى نقيم لها وزناً او تلفت انتباهنا؟ ولماذا نعير انتباهنا لما يتفوه به حاكم عسكري تلقى الأوامر عليه بإصدار أحكام لا رأي له فيها ولا قرار؟ ألم يكن مجرد بوق ينقل صوت طاغية يحكم بالحديد والنار؟ جل السجناء كانوا لا يميزون بين مادة وأخرى، بل ولا يعرفونها أساًسا للأسباب التي ذكرتها، حتى جاء أول قرار رئاسي في منتصف الثمانينات تقريباً بإلغاء أحكام المتهمين بالجرائم السياسية كما تسمى، وبدأت وقتها حملة لإخراج بعض السجناء من الأقسام المغلقة إلى الأقسام المفتوحة، تمهيداً للإفراج عنهم. وجاء وقتها أفراد من الأمن يسألون عن أسماء السجناء وأرقام المواد التي حُكموا بها لإعداد قوائم إدارية تنظم عملية إطلاق سراح المشمولين بالقرار.

استغربت ذلك وقتها، إذ لم أكن أميز مادة عن أخرى وكنت أظن أنه لا يوجد بين سجين وآخر من فرق لا بشكل التحقيق ولا بنوع الاتهام، وكنت أظن ان الجميع في مركب واحد، لكن ساعتئذ تبين إننا لسنا كذلك وان التهم تختلف ولم أتفطن إلى السبب الحقيقي لهذا التمايز إلّا بعد فترة. كان واضحاً إن المحكومين في فترات التوتر

على جبهات القتال كانوا ينالون اقسى الأحكام؛ لذا تصدر عليهم أحكاماً وفق أقسى المواد القانونية، أما من حكم عليه في فترة سابقة لاندلاع الحرب أو في أولها حين كان الجيش العراقي يحقق فيها انتصارات كانت المواد القانونية أقل وطأة في عقوباتها وكذلك هي الأحكام. أضحيت أدرك من حينها إن التهمة التي حكمت بسببها لن ينالها أي تخفيف لأنها أشد المواد قسوة، بل وصار البعض يخشى أن يمتد الحكم المؤبد أكثر مما هو عليه، خصوصاً بعد أن تم تغيير قانون مدة السجن المؤبد من عشرين سنة إلى خمسة وعشرين سنة في بلد كان يمكن أن يكون للقانون أثر رجعي بلا نقاش ولا اعتراض من أي أحد. ومن ينسى صدور قانون شرع حكم الموت لكل منتم لتنظيم معارض ولو كان قد انسحب منه بالفعل حتى قبل صدور ذلك القانون. قطعت بهذا القانون الغريب عشرات آلاف الرقاب من الشباب وبتهم ملفقة في كثير من الحالات. فإذا كان القانون يحكم بالموت على فعل لم يكن جريمة قبل صدوره، فهل كان يجد حرجاً لو مدد الحكم على من هو أصلاً الآن مدان بجريمة؟

37

كان المناخ السائد يشير إلى ما اعتدنا عليه من عدم شمولنا بأيّ قرار رئاسي بإلغاء المدد المتبقية من أحكام السجناء، فلم يكن أمامنا إلا أن نكيّف أنفسنا ونتأقلم من جديد. ما أقبح التأقلم الذي جعلنا نتحمل كل هذه الآلام ولم نعد ندرك لماذا علينا أن نستمر بالحياة. في وقتها ظهر زعيم النظام وقال لا يوجد لدينا سجناء سياسيون، فسألنا أحد عناصر الأمن عن ذلك وقلنا له إذن ماذا نعتبر نحن؟ فأجابنا بردٍ يعكس الاستخفاف بالقانون والتلاعب بالألفاظ الذي تمارسه السلطة القمعية: أنتم نزلاء ولستم سجناء. لكن يبدو أن بعض الهاربين من السجن استطاعوا أن يسربوا أسماءنا نحن سجناء الأقسام المغلقة تحديداً، إلى جهة دولية محايدة وسلموها قوائم مفصلة بشكل واضح جداً عن عدد وأسماء السجناء السياسيين في الأقسام السرية المغلقة، مما اضطر النظام إلى الاعتراف أخيراً بوجودنا في السجن. أُجبر على إطلاق سراحنا في إجراءات سريعة مستعجلة خلال أقل من أسبوع، تحسباً

من زيارة مبعوث دولي كبير كان يحمل معه قائمة طويلة بأسمائنا، وبالرغم من كل ذلك فقد استثني عدد قليل من السجناء وظلوا لفترات أطول، بل إن بعضهم أكمل عشرين عاماً بالتمام والكمال في تلك الزنزانات المريعة.

في يوم شتائي قصير، قبل عشية أعياد الميلاد، استدعيت لالتقاط صورة لي ولأخذ بصماتي. جلست مع مجموعة من السجناء في ساحة كبيرة جداً تفصل بين باب قسم الأحكام الخاصة والباب الخارجي للسجن، حيث قضيت خلفه تسع سنوات وأربعة أشهر وخمسة أيام.

جاء رجل أمن بدين معروف بغبائه وقسوته يطلب منّا المسامحة وبراءة الذمة عما بدر منه تجاهنا، ويرجو ألَّا نحقد عليه وبرر ذلك بأنه كان يؤدي واجبه فقط، ثم طلب منّا أن نتفهم ذلك وألَّا نأخذ الأمور على محمل شخصي. ثم قال، عليكم الآن وأنتم تخرجون من السجن أن تهتفوا بحياة السيد الرئيس القائد، وأن تشكروه على عفوه وكرمه ومسامحته لكم. كنّا نتطلع إليه في صمت لا نرد على أي من كلماته الغبية، إلا أني لم أتمالك نفسي فهمست في أُذن مجاوري بشتيمة مقذعة ذكرت فيها اسم القائد نفسه صريحاً. هبط الغسق ونحن لا نزال في

إجراءات الإفراج، أتطلع إلى الجدران الإسمنتية العالية ومن خلالها تنبعث أمامي صور فتية من خيرة شعبنا قضوا خلفها، وضاعت قدراتهم الخلاقة ومواهبهم الرائعة تحت سنابك خيل مسعورة، وطأتهم بحوافرها الحديدية وخلّفت في صدورهم ندوباً عميقة سيحملها أمثالي من بقية السيف طوال عمره المتبقي. خيم الليل على السجن ونحن نهم بالخروج عبر البوابة الكبيرة وحينها سألني سجين كان إلى جواري:

- ما هو شعورك الآن وأنت تخرج من السجن؟

فأجبته بما كان يجول في ضميري.

- بلا شعور.

أربيل

الأول من أيلول

٢٠٢٣

تمت

٩٠٥٦٣ / ٨١٣
خ ٩٢٦ الهندي ، ناهض
رسالة من كورنوجيا / ناهض الهندي
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٣ .
(٢١٩) ص ؛ (١٤,٥ × ٢١ سم) .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

م . و
.... / ٢٠٢٣

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (....) لسنة ٢٠٢٣م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook